الرقص على حافّة الذات

رواية قصيرة لليافعين والمعلّمين

نورالدين زهير شبيطة

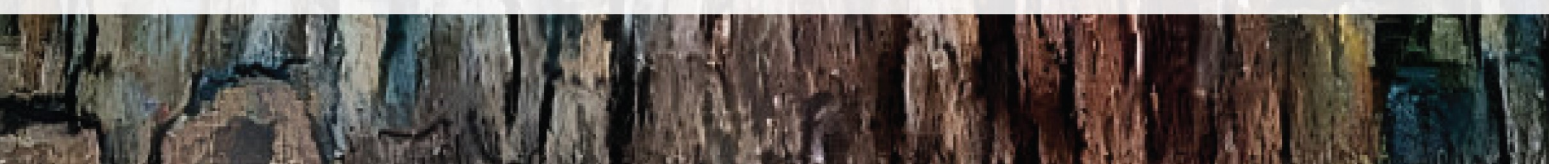

الرقص على حافّة الذات

نورالدين زهير شبيطة

الأسبوع الثالث

كان من الطبيعيّ أن أبدأ هذا "السجلّ اليوميّ" من الأسبوع الأوّل، لكنّني بصراحة لم أجد طلب الآنسة ديمة "معلّمة الدراما" مقنعًا، ولم أدوّن شيئًا خلال الأسبوعين الأوّل والثاني، وإذا أردت أن أضع في الصفحتين المخصّصتين لهما شيئًا، فقد أرسم وجهًا غاضبًا ذا تكشيرة مزعجة، لولا أنّني لم أعد أحبّ الرسم. لطالما كانت العلاقة عكسيّة بين تعلّمي الكتابة وتعلّقي بالرسم. نعم، أنا ماهرة في الكتابة، وبصراحة أيضًا، لا أريد أن أكتب هنا!

اتّصلت الآنسة ديمة بأمّي قائلة: "عليها أن تكتب شيئًا من أفكارها حول الحصص، أيّ شيء." وها أنا أكتب "أيّ شيء"! هل هذا كافٍ؟

ولأنّ أمّي، كالعادة، تجادلني الآن في أنّ كلمة "أيّ شيء" تعبير مجازيّ، لا يقصد به أيّ شيء تمامًا، فأنا مضطرّة أن أقول شيئًا عن الحصص. وها أنا ذا أقوله:

لم أكن أتنمّر على زميلتي عندما ضحكت في أثناء تمارين التنفّس، لقد كان الموقف مضحكًا بالفعل، وكم أحبّ لو تكلّمت الآنسة ديمة مع معلّمة الأحياء التي أخبرتنا أنّ الضحك فعل "لا إراديّ"، فلماذا أعاقب على فعل غير إراديّ! ألسنا مسؤولين فقط عن أفعالنا الإراديّة؟

لم تكتفِ أمّي بما كتبت، وطلبت إليّ أن أتحدّث أكثر! حسنٌ، سأشرح الشيء المضحك في الموقف الذي أغضب الآنسة منّي.

بعد أن طلبت منّا الآنسة أن نتنفّس مستخدمين عضلات البطن لا الصدر، استغرق الأمر مدّة طويلة حتّى فهمناه. عندما طُلب إلينا أن نتحرّك، سألت صديقتي مرام: "هل نتابع التنفّس؟" أليس سؤالها مضحكًا! تخيّلت أن نتوقّف عن التنفّس لأنّنا الآن نتحرّك! أنا لم أكن أسخر من زميلتي، لكن الآنسة غضبت منّي بسبب الضحكة الهستيريّة التي أمسكتني، بل بسبب أن ضحكي كان معديًا وانتقل

إلى زميلاتي، وصارت تنادي بصوت حاد: "انضباط!" فحاولت أن أمسك نفسي، لكن ضحك الأخريات انتقل إليّ بالعدوى أيضًا، فصارت الآنسة تنادي باسمي: "يا غادة انضباط!" نجحت في إمساك نفسي، ثمّ ماذا حدث بعد ذلك؟ هل يمكن لأفضل مهرّج أن يختلق موقفًا كهذا!

قالت الآنسة: "هدوء، لا أريد أن أسمع نفسًا!" ولما كرّرت مسألة "النفَس" هذه، لم يعد بوسعي أن أمسك ضحكتي؛ قبل قليل كانت مرام تسأل إذا كان علينا أن نستمرّ بالتنفّس أم لا، وشعرت أن كلام الآنسة هو الجواب عن سؤالها! هل أشرح النكتة أكثر!

هكذا أصبحت أنا "المتنمّرة". غريب!

التنمّر هو ما فعلته فلانة وفلانة وفلانة، ولن أكتب أسماءهنّ هنا، عندما كتبن على أدراجهنّ بقلم الطمس لقبًا أطلقنه على طالبة من الفترة المسائيّة، أمّا أنّني سمعت شيئا مضحكًا فضحكت، فلا! التنمّر

هو ما فعلتُه أنا في سنة سابقة، عندما وضعت علكةً على كرسيّ زميلتي، أما الضحك، فليس تنمّرًا.

الأسبوع الرابع

اليوم، أنا لا أكتب مجبرةً. أنا ذكيّة بما يكفي أن أعرف أنّ الآنسة لا تقرأ السجلّات كلّها، هي تلمحها بالعين لتتأكّد أنّنا كتبنا "أيّ شيء". لكن ربّما يجب أن أتأكّد! نعم نعم، لديّ فكرة.

لكن هل يحسن أن أفعل هذا حقًّا؟ لا يهمّ، فالآنسة ديمة تحبّ النقاش.

معلّمتي العزيزة،

أتمنّى أنّك قرأتِ كلامي في الأسبوع السابق، وأنّك الآن تعرفين أنّك كنت على غلط. فأنا ما زلت ألاحظ أنّك تراقبينني بصورة خاصّة أثناء الفرص يوميًّا، وفي حصّة الدراما كلّ أسبوع. مثلًا: في حصّة هذا الأسبوع، عندما طلبت إلينا أن نغلق أعيننا، ونتحرّك في الغرفة دون أن نصطدم ببعضنا، لم أغلق عينيّ تمامًا في البداية، تسرّب الضوء بين جفنيّ، ورأيت أنّك تراقبينني!

للعلم فقط، قد أراحني ذلك، فتجرّأت وأغمضت عينيّ. حينها، أحسست أنّ حواسّي الأخرى كانت مدفونةً تحت طبقة سميكة من البصر، أو ربّما أنّني أزحت أغصان شجيرة البصر فكانت الحواسّ الأخرى قطّة الحيّ الصغيرة المفقودة.

أريد أن أخبرك بأمر آخر: إنّ مهمّة كتابة السجلّ اليوميّ هذه مناسبة أكثر لحصّة اللغة العربيّة. أتمنّى بالفعل أن تنقلي الفكرة للأستاذة أمل، فهي تثقلنا بمهمّات كتابية تتعلّق بأمور لا تهمّنا ولا نعرف عنها شيئًا. لقد طلبت منّا في أوّل السنة أن نكتب رسالة إلى قائد عربيّ تاريخيّ، وكنت أشعر بالتفاهة طول وقت الكتابة؛ فلا أحد يكتب رسالة لشخص ميّت! ثمّ إنّني ككلّ الطالبات أعلم ما تتوقّع الأستاذة قراءته، وأخاف إذا كتبت نصًّا يرضيني أنا أن تغضب هي. للصدق هي تعاملنا باحترام، وليس ثمّة ما أخافه، لكنّني أخجل أن أخيّبها وهي التي تحبّ كتاباتي. قالت لي مرّة: "تشبيهاتك تزركش النصّ."

المهمّ: إذا قرأتِ هذه الرسالة، رجاءً انقلي لها فكرة السجلّ.

طالبتك،

غادة – الصف التاسع ج.

هذه الرسالة لا يمكن تجاهلها! إذا قرأتها الآنسة ديمة فعلًا، فسوف أعرف، حتّى لو حاولت إخفاء ذلك. أحبّ أنّني ذكيّة! هاهاها

الأسبوع الخامس

قبل أن أبدأ الكتابة هذه المرّة، تصفّحت ما كتبت سابقًا. ارتسمت على وجهي ابتسامة هي في الأصل ضحكة مكتومة وأنا أنظر إلى كلمة "الثالث"؛ لقد فوّتُّ أسبوعين دون كتابة. أمّا بعد قراءة ما كتبته في الثالث والرابع، فقد عدت أنظر إلى أوّل السجلّ وعلى وجهي ملامح أختي عندما قبلت أن تأكل من يدي لوزةً مرّة!

ليس في ذاكرتي أيّ شيء يستحقّ التأمّل عمّا حدث خلال أوّل أسبوعين! كيف ذلك؟ لا لا، أنا أتذكّر أحداثًا حصلت في تلك الأيّام، لكنّ مشاعري تجاهها لا تتضارب. في الأسبوعين الماضيين أرى أنّه ثمّة فرق واضح بين ما كنت أحسّه حينها، أي ما دوّنته على الورق، وكيف أنظر إليه الآن. مشاعري مختلفة كليًّا.

حسنٌ، سأجعل هذه المهمّة مفيدة بالطريقة التي أراها أنا!

كنت أشعر بالترقّب قبل حصّة التعبير، كنت خائفةً من أن تكون الآنسة ديمة قرأت يوميّاتي فعلًا، فتطلب منّا الأستاذة أمل كتابة سجلّ يوميّات للغة العربيّة، لكنّني بعد دقائق شعرت بالخيبة عندما طلبت إلينا الأستاذة أن نكتب حوارًا متخيّلًا بين كلب ضالّ وكلب حراسة. هنا بالضبط عرفت أنّني متقلّبة، فنحن لا نلاحظ التغيّرات اليوميّة التي تمرّ بنا ببطء، لكن اختبار شعورين متناقضين معًا أمر آخر، هذا تغيّر سريع! التغيّرات اليوميّة تشبه حركة الأرض كما تصفها معلّمة الجغرافيا: لا نحسّ بها لأنّها مستمرّة. أمّا ما شعرت به وقتها فقد كان أشبه بمكابح فجائيّة للدراجة الهوائيّة، تغيّر سريع غير مريح على الإطلاق.

بالتأكيد أنا أترقّب ردّة فعل الأستاذة أمل على ما كتبت. ستصحّح الأوراق، وقد تسقط على الأرض من الضحك على ما كتبت، أو ربّما من الصدمة لا أعلم!

لقد بدأت بمزاح ثقيل الظلّ فجعلت الكلبين يتبادلان النباح مطوّلًا. ألم تحدّثنا الأستاذة عن الأدب الواقعي! صحيح أنّني أرى مزاحي ثقيل الظلّ الآن، لكنّ كتابة ذلك وقتها كانت أمرًا ممتعًا. من الجميل أن تكون ماهرًا في مبحث معيّن، فهذا يعطيك مساحةً من الحريّة. أنا متأكّدة من أنّ هذه المهمّة لن تؤثّر في علامتي، إضافةً لأنّي سئمت سريعًا من كتابة النباح، فعدت ووضعت ترجمة له إلى لغة البشر. هذا إلى جانب أنّني زيّنت النصّ بوصف الكلبين، لكنّني، على غير المتوقّع منّي، جعلت الكلب الضالّ بصحّة جيّدة، وكلب الحراسة يعاني مع حرّ الظهيرة لأنّه مستورد ذو فروٍ كثيف. نظر إليّ النصّ في النهاية وكأنّه يقول: ها أنتِ تستمتعين بقراءتي! نعم، استمتعت، رغم أنّها لم تطلب منّا كتابة سجلّ.

تذكّرت أمرًا آخر، أحببت فكرة أعراف الدراما التي أخذناها اليوم. عندما قسّمتنا الآنسة ديمة إلى أزواج من الطالبات، تمنّيت أن أكون مع صديقتي مرح،

وبالفعل هذا ما حصل. طلبت منّا الآنسة أن نتعامل مع زميلتنا كأنّها منحوتة نشكّلها كيف نريد.

عندما كنت أنا المنحوتة، بقي انتباهي مع الفتيات الأخريات، وربّما صعّبت الأمر على مرح. من الجميل أن ترى أفكار شخص في جسم شخص آخر، كنت أحسّ أنّ كلّ فتاتين هما فتاة واحدة وبجانبها سحابة أفكارها الظاهرة لنا.

لـمّا تبادلنا الأدوار، كنت أجرّب شعور أن يطيعني أحد، ثمّ كان عليّ أن أرتجل تبريرًا للوضع الذي شكّلت جسم مرح فيه؛ كنت أحاول أن أجعلها تضع أصبعها السبابة في أنفها، لكنّني اشتممت عطر الآنسة، فهي تلبس حذاءً رياضيًّا ولا يمكننا سماع خطواتها، واقترابُها منّا جعلني أترك إصبع مرح في الهواء بجانب وجهها. عندما جاء دوري لألمس المنحوتةَ "مرح"، وأتحدّث وكأنّني صوتها الداخليّ، قلت:

"كانت يدي على خدّي، وأنا أفكّر في حلّ للمشكلة التي أواجهها، لكنّ فكرةً خطرت برأسي، وبسبب ما اعتدته في المدرسة رفعت إصبعي عفويًّا دون تفكير."

وللحظة شعرت بقامتي تطول، فأنا استطعت النجاة من مأزق السؤال، واستطعت أن أخفي سحابة أفكاري الشرّيرة. سألت الآنسة ديمة المنحوتة:

"وما هي المشكلة التي تواجهك؟"

ولأنّ مرح لا يجوز لها الكلام، كان عليّ أن أجيب دون أن يكون لديّ الوقت للتفكير، وذهني في الأصل كان مشغولًا بتخيّل كيف طالت الأشياء حولي، فأصبحت أقصر:

"تركت إحدى طالبات الفترة المسائية رسالةً لي في جيب المقعد، تطلب منّي أن أخبرها باسم الطالبة التي كتبت لقبًا تعايرها به الطالبات على المقعد، ولا يجوز أن أشيَ بابنة صفّي."

رجعت إليّ الآنسة بالسؤال الصعب:

"وما الفكرة التي خطرت ببالك؟"

تلعثمت قليلًا، كان في فمي كلام آخر ينافس ما أهمّ بقوله، لكنّني استجمعت قوّتي وقلت شيئًا:

"لا يكفّ المتنمّر عن التنمّر حتى يشعر بما شعر به الطرف الآخر، أريد أن أكتب لها لقبًا تطلقه بنات الصفّ على الفتاة التي تسأل عنها، لا اسمها!"

أعجبني بعدها أنّني أثرت فضول الآنسة ديمة، حول طلبة الفترة المسائيّة، وهنّ طالبات لجأ أهلهنّ هنا، وأقاموا في المخيّم. يدرسن الآن في المرافق نفسها التي ندرس فيها، لكنّ مدرستهنّ مستقلّة عن مدرستنا، أيّ إنّ لهم معلّمات أخريات، ومديرة أخرى. مدرستنا تشبه الدكتور _ماذا كان اسمه؟_ الذي درسنا عنه في قصّة اللغة الإنجليزيّة، آه دكتور جيكل؛ لها شخصيّة أخرى في المساء!

هذه أكثر مرّة أكتب فيها هنا في السجلّ، ولأنّني أعلم أنّني سأعود وأقرأ ما كتبت، فلا أريد أن أطيل

على نفسي! لكنّني سأستمتع عندما يذكّرني هذا السجلّ بمشاعر نسيتها.

الأسبوع السادس

1

هذه المرّة أنا أكتب قبل حصّة الدراما، بعكس المرّات السابقة، كلّ ما في الأمر أنّني شعرت بشعور جديد، وأريد ألّا أنساه. أتذكّر كيف يعدّ لنا أبي أحيانا أطباقًا جديدة غير الطبخات التي تصنعها أمّي، ومع أنّ رائحة الطعام تعبق في المنزل لا نحزر الطبق، وعند الأكل أحسّ أنّ الطعم جديد كليًّا عليّ. أبي يطهو الطعام دون وصفات، لهذا فإنّ الطعام الذي يعدّه لا اسم له. هكذا أقرأ هذه المشاعر الجديدة، قد لا يكون لها اسم، لكنّها حقيقيّة مشبِعة كأطباق أبي.

عادةً عندما أُستدعى للإدارة، وهذا يحدث كثيرًا، يكون السبب واضحًا، فأنشغل بالقصّة التي طلبتني المديرة بسببها، أقفز على شبكة القصّة من عقدة لعقدة، مجهّزةً نفسي للأسئلة، حتّى إنّها تكون المرّات الوحيدة التي أهبط فيها الأدراج دون أن أعدّها. هذه المرّة جاء الاستدعاء بصورة غريبة، فليس ثمّة

شيء مميّز اليوم؛ لم أتجادل مع إحدى المعلّمات، ولم تبكِ أيّ زميلة لي، ولم تكسر الطالبات شيئًا من ممتلكات المدرسة. هكذا من الفراغ جاء الخبر، واستُدعيت للإدارة.

المشاعر التي أتحدّث عنها تشبه أن تبدأ بالبحث عن ذنب ارتكبته، فترى أنّ تصرّفاتك الطبيعية بحدّ ذاتها ذنب. لا أعرف كيف أصف هذا، لكنّني كنت أشعر بظلم لا أعرفه، وأشعر في الوقت ذاته بقوّة غامضة؛ أنا لم أفعل شيئًا يستحقّ العقوبة. كنت أيضًا أخفي قلقي لأنّه قد يعني وجود شيء أخفيه. نعم، إنّه شعور معقّد.

وقفت أمام باب الإدارة أنتظر أن تدخلني المساعدة إلى المديرة. لمكتب المديرة رائحة مميّزة توقظ الذكريات. وجدت نفسي أراقب إطار لوحة الحائط الذي شوّهته قبل سنوات. أفكّر الآن في أنّ أحدًا لم يصلحْه، بيد أنّي حينها كنت أتذكّر كيف كنت أمدّ ذراعي إلى آخر استقامته لأصل إليه، في حين أراه في

محاذاة كتفي اليوم. لقد طال قوامي سريعًا، وربّما لهذا السبب بتّ بهذا النحول. قد أكون تمطّطت ولم أكبر فعلًا! لا يهمّ... نحولي لا يزعجني، ها هي الآنسة ديمة جميلة رغم أنّها نحيلة مثلي.

للصدق، أثناء تفكيري في إطار اللوحة، نسيت للحظات أنّ المديرة تطلبني لأمر ما، وتفاجأت عندما نادت المساعدة باسمي، ثم قالت: "تفضّلي يا غادة." كلمة "تفضّلي" بالطريقة تلك أراحتني كثيرًا، كانت تشبه كأس ماء من ثلّاجة مطبخ المعلّمات. ملأت رئتيّ بالهواء، وأغمضت، ثمّ ألقيت نفسي داخل مكتب المديرة، اختلطت عليّ عطور الحاضرات: المديرة بالتأكيد، ومعها امرأة أخرى تجلس بجانبها، وعلى الكراسيّ المفردة تجلس المرشدة والآنسة ديمة تضع مرفقيها على ركبتيها ويلمع بعض شعرها المنسدل مع الضوء الذي يتخلّله. كنّ وضعن لي كرسيًا منفردًا لأجلس عليه، ولولا أنّ الضوء في مكتب المديرة يصل إلى زوايا الغرفة، لأحسست أنّني في غرفة تحقيق داخل فيلم بوليسيّ.

مكتب المديرة واسع. لا أدري أهو أكبر حجما أم غرفة صفّنا! طردت هذا السؤال من رأسي، وسرعان ما انصبّ ذهني على السيّدة الوقورة التي تجلس بجانب المديرة. قد لا أعرف كلّ أمّهات بنات صفّي، لكنّني بالتأكيد أعرف أنّها ليست إحداهنّ، ولا أعلم كيف عرفت هذا. بالفعل، اتّضح لاحقًا أنّها مديرة المدرسة الأخرى. بدأت المرشدة الحديث:

"غادة، أعرفّك على الأستاذة صفاء، وهي مديرة الفترة المسائيّة في المدرسة."

"المدرسة السوريّة! وما شأني أنا بطالباتها؟" تدحرجت الكلمات على فمي دون أن أفكّر.

طمأنتني المرشدة: "حبيبتي غادة، أنت هنا لسبب آخر. ليس ثمّة تحقيق أو عقوبة أو أيّ من ذلك. نحن ندردش فقط."

هززت رأسي، وأسعفتني لياقتي أن أخاطب الأستاذة صفاء: "أهلا وسهلا أستاذة!" وبدأت نظرات

الإعجاب تطلّ من وجوههنّ لكوني سلكت السلوك الصحيح. تابعت المرشدة:

"غادة، نحن هنا نسأل الطالبات، ونريد أن نفهم كيف ينظرن إلى الطالبات من الفترة المسائيّة."

فأجبتها:

"آنسة، صدّقيني لا أعلم عن هذا الأمر شيئا، أنا أسكن بعيدًا عن المخيّم. لذلك، لا أراهنّ ولا أحتكّ بهنّ. سؤال البنات الأخريات سيكون أكثر فائدةً."

جاء صوت مديرتنا هادئًا بصورة صادمة، كدت ألّا أصدّق أنّها هي من يتحدّث:

"إذا لم ترغبي أن تشاركينا الدردشة، فلك حرّيّة الانصراف، لكنّني أرى فيك طالبة ذكيّة، وعندي أسئلة محدّدة لك."

قلت: "أنا باقية، تفضّلي...".

"هل تلاحظين أنّ أثاث المدرسة بات أسوأ منذ افتتاح المدرسة المسائية؟" سألتني المديرة.

أجبت:

"نعم، كثير من المرّات أسمع الطالبات يقلن: إنّهنّ رأين الشيء مكسورًا منذ الصباح."

ثمّ بدأت أعدّ بلاط المكتب طولًا وعرضًا، لأعرف إن كان مكتب المديرة أكبر من صفّنا أم لا. وانتبهت من ذلك عندما عدّلت المديرة جلستها واستفهمتْ: "وأنت، هل رأيت هذا بالفعل؟ أقصد هل رأيت شيئًا مكسورًا عند قدومك أوّل الدوام؟"

اعتذرت منها: "حضرة المديرة، أنت تسألين الشخص الغلط، فأنا لا أنتبه كثيرًا لهذا، وقد يكون لوم زميلاتي لهنّ مدفوعًا بالعداوة بينهنّ، أقصد عداواتٍ آتيةً من الحيّ، لا من المدرسة. في الوقت نفسه، بصراحة أنا أنزعج من اضطرارنا لإعادة المقاعد إلى موضعها كلّ صباح."

صار الجوّ مريحًا أكثر، فالإدارة تسألني وكأنّني سيدة كبيرة، لا طفلة مشاغبة تحقّق معها! هنا، قالت الأستاذة ديمة بهدوئها المعهود:

"غادة، لا نريد أن نعطّلك عن الحصص أكثر، لكنّ المرشدة ستتابع معك لتسألك عن الذي تعرفينه عمّا أسميته عداوات."

ثمّ دار حوار قصير، وخرجت إلى الصفّ، والكلّ ينتظر أن يعرف ما حدث، لكنّني على غير عادتي لم أستخدم القصّة للتندّر، وقلت: "لم أفهم ما القصّة! مجرّد أسئلة عن النشاطات اللاصفّيّة، والإذاعة المدرسيّة" نعم، كذبت. وأنا لا أجد صعوبةً في هذا، لكنّني نسيت عدد البلاطات، فلم أستطع الحصول على إجابة عن سؤالي.

أحبّ الآن أن أفكّر أنّني لن أحتاج كتابة شيء في السجلّ الأسبوعيّ بعد الحصّة، فصفحات هذا الأسبوع مليئة بالفعل، وفي الوقت ذاته أحسّ أنّ الكتابة هنا مريحة. إنهاء الكتابة في السجلّ يشبه ابتلاع لقمة طال مضغُها. يبدو أنّني جعت، أو ربّما هي رائحة طبخ أبي!

كنت أظنّ أنّني لن أكتب أكثر هذا الأسبوع، لكنّ الحصّة اليوم كانت مختلفةً جدًّا. لماذا تبدأ المعلّمات بالأمور المملّة دائمًا؟ في الأسابيع الأولى قضينا الوقت نتنفّس، ونتحرّك في القاعة بطريقة غريبة، أو نغمض أعيننا، وأحيانًا نطلق صرخات. صحيح أنّ زميلاتي وجدن ذلك ممتعًا، لكنّني لا أحبّ أن أفعل شيئًا فقط لأنّ المعلّمة طلبته. لا أحبّ شعور الدمية أو كلب الحراسة المستورد. أمّا حصّة اليوم فقد كانت حكايةً مختلفةً.

دخلت الآنسة ديمة إلى الحصّة، وقالت:

"بعد تمارين الإحماء، سنفعل شيئًا مختلفًا."

حمّسنا كلامها، فأنهينا الإحماء سريعًا، وانتظرنا أن تطلب منّا شيئًا، لكنّها سألتْ سؤالًا غريبًا:

"أعرف يا بنات أنكنّ تعلّمتنّ في حصّة التاريخ عن حضارة ما بين النهرين، أي تاريخ الأرض العربيّة التي نسمّيها حاليًّا العراق. أريد منكنّ أن تتخيّلن، ماذا

يمكن أن تكون موجودات المتحف الوطنيّ العراقيّ في هذا العصر؟"

لم تتركنا نجيب فورًا، بل طلبت إلينا أن نشكّل القطعة الأثريّة التي انتقيناها مما درسنا عنه، إمّا بالرسم أو بمنحوتة نصوّرها بأجسادنا، أو بوضع قطعة ما نتخيّلها قطعة آثار ثمّ نشرح عنها. مهما كان العرف الدراميّ الذي نوظّفه، ليس بالضرورة أن يكون ما نطرحه دقيقًا تاريخيًّا. كنّا منهمكات في تمثيل القطع وتحضير ما سنقوله عنها، عندما قاطعتنا وهي تضع شارة اسم على قميصها، تخفيها بيدها كأنّها تطمئنّ قلبَها، قائلةً:

"عندما أكشف شارة الاسم، سأكون طفلًا عراقيّا متخيّلًا اسمه حيدر، وسيكون الزمن 1999 للميلاد، وقت الحصار الأمريكيّ المفروض على العراق. أمّا أنتنّ، فكلّ طالبة منكنّ ستكون والد حيدر المتخيّل أيضًا، وهو الدكتور كمال حسين مدير المتحف العراقيّ، الرجل الوطنيّ الذي يأخذ ابنه حيدر

المحبّ للرسم في جولته الأولى في المتحف، ويعرّفه على القطع الأثريّة الموجودة هناك، محاولًا جعله يحبّ بلاده أكثر خلال تلك الظروف الصعبة."

أبقت يدها على شارة الاسم في سكوت تسمع معه طبول السيرك الخافتة، حتّى سكن الصفّ من الترقّب، وأخذت تسير بين الطالبات في القاعة. وقفت فجأة أمام زميلتي سناء، وكشفت عن اسم "حيدر" قائلةً:

"واو، يالَجمال هذه المنحوتة، ما هذا يا أبي؟"

فانطلقت سناء تشرح بكلام لا أذكر منه إلّا أنّني أحببت الفكرة، وشعرت أنّني يجب أن أنفّذ المهمّة بصورة لائقة، أحسست أن سناء بالفعل هي والد حيدر، وأنّ الآنسة ديمة هي الطفل حيدر. كان أداء سناء ساحرًا، لقد خرجنا من الصفّ فعلًا، لا ليس فعلًا، أقول ذلك مبالغةً، لكنّ ذهني كان هناك في المتحف. أحسست كما لو أنّ سقف الغرفة ارتفع!

تحرّك حيدر نحو قطعة نقديّة وسأل أباه عنها، فأجاب الدكتور كمال: "هذه يا ولدي من أوائل المسكوكات النقدية على وجه الأرض، لقد عرف أجدادنا الاقتصاد والعملة، واستخدموا الذهب لتثمين الأشياء. لطالما كان العراق بلدًا ثريًّا بشعبه وموارده، واليوم نعاني من الحصار الظالم على البلاد."

عندما وصل حيدر إليّ، سألني عن التمثال الذي كنت أقف على هيئته. أنزلت يديّ المشدودتين إلى جانبي، وانتصبت مبتعدة عن مكاني الذي صار يشغله التمثال المتخيّل. حاولت أن أبثّ في ابني حبّ بلاده، وصرت أشرح له عن أحد أهمّ رموز العراق القديم (الثور المجنّح)، في الحقيقة لا أذكر شيئا ممّا قلت، لكنّني لم أتلعثم. انطلقت في الحديث أحاول أن أظهر له أسباب ما نحن جديرون به من صمود أمام الحصار والحرب. أغرب ما في الأمر أنّ سكوتي كان خوفًا من اختناق أحسّه والد حيدر في صوته!

كيف يمكن لفكرة كالتي طرحتها الآنسة ديمة أن تنقلنا هذه النقلة! لقد استمتعت بأن أكون شخصًا آخر لمدّة دقائق. عند العودة إلى ذاتي، بقي بعض من الدكتور كمال فيّ، كأنّني لبست معطفه، وانتقلت لي رائحته. انتهت جولة حيدر في الصفّ، وصرت أفكّر: من ترى سنكون بعد ذلك؟ لكنّني شعرت بمكافئة ظريفة عندما أخبرتنا الآنسة أنّ والد حيدر أهداه ثورًا مجنّحًا صغيرا من دكّان الهدايا في المتحف. كان سروري بالهديّة ينافس سرور حيدر؛ شعرت أنّني الأقرب إلى الدكتور كمال.

طلبت منّا الآنسة ديمة أن نتخيّل غرفة حيدر بعد أربع سنوات من متابعة هوايته في الرسم، ودفاتره وما تحتويه من رسومات. ولأنّني نلت إعجاب الجميع بما قلته عن الثور المجنّح، أضفت قطعة جديدة إلى غرفته، فوق الألوان واللوحات والآلات الموسيقية جعلت حيدر يمتلك "دبدوبًا" كان يساعده على النوم وهو طفل! تركت الآنسة الطالبات ينتهين من الضحك على الفكرة، ثمّ قالت:

"عظيم... لدينا الآن فكرة عن غرفة حيدر، وسأترككن مع فكرة: ماذا تقول غرفة الفتى عنه؟"

لقد كان جميلًا أن أمتلك غرفةً خاصّةً، حتّى لو اضطررت أن أكون شخصًا آخر خلال ذلك. غرفتي في النهاية مشتركة مع أختي ميّادة، حتّى إنّني أشير إليها بكلمة "الغرفة" أو "غرفتنا"، ولا أستطيع أن أقول: "غرفتي!"

الآن، أقصد في لحظة الكتابة في السجلّ، ثمّة ما أفكّر فيه ولا أكتبه: أنظر إلى غرفتنا أنا وأختي، وأفكّر في الذي تقوله عنّا. أفكّر أيضًا أنّني أتشارك حتّى مقعدي في المدرسة مع بنت لا أعرفها، لكنّني أسمّيه "مقعدي".

ومثلما تفعل المسلسلات التلفزيونية التي تضع تحوّلًا مهمًّا في آخر لحظة، أخبرتنا الآنسة ديمة أنّ الزمن في قصّة حيدر الآن هو العام 2003 قبيل الغزو الأمريكيّ للعراق، وشغّلت نشرة أخبار قديمة، فأخذنا نسمع بحذر، ونحن نفكّر في حيدر وما الذي حصل

معه حينها، ثمّ رنّ الجرس! والذي كنت أفكّر فيه حينها: الآن عليّ العودة لأكون غادة!

الأسبوع السابع

"كلّ واحدة منكنّ الآن هي حيدر، وعندما أكشف عن شارة الاسم ستعرفن من أنا، وتتصرّفن معي على هذا الأساس." هذا ما قالته الآنسة بعيد انتهائنا من الإحماء، ثمّ كشفت عن شارة الاسم وأزاحت شعرها الكستنائيّ الطويل الذي كان يغطّيه، فظهر الاسم "أمّ حيدر"، فقلت:

"أمّي، لماذا تأخّر أبي عن المنزل؟"

لم تضحك الطالبات كما كنت أتوقّع، ثمّ أجابتني أمّي:

"حيدر عزيزي، أبوك أرسل سائقه ليأخذنا إلى الحدود الأردنيّة، وسيلحق بنا. ليس معنا وقت، سآخذ أوراقنا الرسمية مع قليل من المال، وأنت عليك أن ترتدي ملابسك، وتستطيع أن تأخذ شيئا واحدًا معك فقط، هيّا اذهب والتقط هذا الشيء."

وما إن بدأت أولى الطالبات في التحرّك، حتّى تبعناها، فغطّت الآنسة شارة الاسم مناديةً: "تجمّدن

كما أنتنّ!" فبقيت كلّ منّا مكانها، كأنّنا في لعبة (صنم). سارت الآنسة برشاقة نحو طالبة متجمّدة في يسار القاعة، وسألت: "حيدر، ما الذي تحمله؟"، فأخبرتها الطالبة أنّها تأخذ دفتر رسومات قديم للقطع الأثريّة في المتحف.

كانت زميلة أخرى تأخذ علبة أدوات الرسم ودفترًا جديدًا فارغًا، أمّا الأخرى فقد أخذت سكّينا لأنّها تخاف ممّا سيحصل لاحقًا في الطريق إلى الحدود الأردنيّة. حيدر عندي لم يأخذ سوى شيء واحد "تمثال الثور المجنّح" الذي أهداه إيّاه والده.

تضايقت كثيرًا ممّا حدث، فنحن كنّا لم نزل فرحين بأن نعيش حياة حيدر، وكان الوقت مبكّرًا على هذه المعاناة. ركب حيدر وأمّه في السيّارة، وانطلقا مع السائق نحو الحدود الأردنيّة. أكاد أقسم إنّني رأيت السيارة تسير مبتعدةً حينها.

طلبت منّا الآنسة أن نتخيّل أنفسنا في مكان والد حيدر، الذي يعرف أنّه قد لا يرى ابنه، وقالت:

"سأقرأ عليكنّ بداية الرسالة التي أرسلها الدكتور كمال حسين إلى ولده حيدر، وأوّزعها عليكنّ، لتتممن كتابتها ثم ترفقنها بسجلّ اليوميّات الذي تكتبنه."

قرأت الآنسة:

"ولدي الحبيب حيدر،

إذا كانت البنوك وآبار النفط رصيد الأمّة من النقود، فالمتاحف هي رصيدها من التاريخ. والفنون التي تركها أجدادنا لنا هي تَرِكَتُنا الكبرى التي علينا حراستها، كما علينا أن نساهم في الفنون التي نتركها للأجيال اللاحقة، لذلك دعمت موهبتك في الرسم، وحرصت على أن تتعلّم التاريخ من مصدره الأوّل، اللقى الأثريّة.

إنّ خياري في البقاء ومحاولة حراسة المتحف الوطنيّ من أيدي العابثين خيار وطنيّ أفتخر به، وأفتخر بعائلتي التي ستصبر على عواقب هذا القرار، وأنا أعرف مسبّقًا أنّها لن تكون عواقب سهلةً. وإذا كانت

هذه مسؤوليّتي بصفتي متخصّصًا في التاريخ ومديرًا للمتحف، فإنّ على كلٍّ منّا حصّته من المسؤوليّة. وأنت أمامك مستقبل مهمّ في مجال الفنون..."

فأكملت أخاطب ولدي حيدر:

"يا ولدي لقد كبرت بالفعل، أنت الآن رجل العائلة من بعدي، أريد منك أن تعتني بأمّك، وأن تسعى لتكسب شهرةً تمكّنك من فضح جرائم الغزو الأمريكيّ للعراق. إنّه نداء الوطن يا بنيّ!...

إذا كنت قرأت هذه الرسالة، فهذا يعني أنّك على الأغلب لن تراني بعد اليوم، لكنّ هذا لا يعني أنّني لن أراك. كن قويًّا فأنت ابني، وأنا ابن العراق."

بدأت الطالبات يقرأن ما كتبنه على لسان الدكتور كمال، وكانت الآنسة تنتقل إلى الطالبة التالية بالاقتراب منها، فيخفت صوت الطالبة التي كانت تقرأ، ويعلو صوت الطالبة الجديدة، لذلك لم ينقطع صوت الدكتور كمال. خلال تنقّل الآنسة وارتفاع الصوت وانخفاضه معه، شعرتُ للحظة أنّنا نسمع

بأذنيها هي. ثمّ وقفت في مقدّمة القاعة قائلةً بصوت مبالغ في الوضوح:

"فلتطوِ كلّ منكنّ الرسالة وتضعها في المغلّف المخصّص، وتحتفظ به في سجلّ اليوميّات."

ثم أخبرتنا أنّ حيدر وصل إلى مخيّم طالبي اللجوء على الحدود الأردنية، وما زال داخل حدود العراق، وأرتنا صور المخيّم، وعقّبت بأنّ حيدر بقي ينتظر والده يوما كاملًا، وكان علينا أن نتخيّل أنّنا حيدر في ساعة ما من اليوم، وأن نقول الساعة، وما الذي نسمعه أو نراه أو نشمّه في ذلك الوقت.

لا أذكر الآن ما قالت كل واحدة من زميلاتي، لكنّني عشت ذلك اليوم مع حيدر بتفاصيله، يستمع نشرة الأخبار على المذياع من الخيمة المجاورة ليلًا، يلعب بالحجارة محاولًا تشكيل صورة فنّية، يأكل طعامًا لا يستسيغه، ينام فيرى الكوابيس...

وبعد أن أتمّت آخر الفتيات تمثيل حال حيدر، جلست الآنسة بثيابها الأنيقة على أرضيّة القاعة وتركتنا وقوفًا، ثمّ قالت:

"وصلت رسالة الدكتور كمال إلى ولده عن طريق السائق، وطلب منه ألّا يفتحها إلّا حين يكون وحيدًا في خيمته. فلتجلس كلّ منكنّ في الخيمة وتخرج الرسالة من الظرف، وتقرأ."

ذهبت إلى آخر القاعة، وتخيّلت الخيمة معتمة، والضوءَ الآتي من شقّ في ستار القاعة شعاعًا يتسرّب إلى الخيمة، وجعلت أقرأ.

وبعد هنيهة قاطعتنا:

"لاحظ حيدر أنّه ثمّة كتابة بخطّ صغير داخل المغلّف!"

فانتبهنا للكتابة داخل المغلّف، وقرأنا:

(حيدر، في المغلّف ثمّة ميكروفيلم فيه أسماء الأشخاص المتآمرين ضدّ تراثنا، وقائمة بأهمّ القطع الأثريّة المسروقة... احرص على أن تستعيدها.)

وجدت نفسي أفتّش في المغلّف الذي معي عن الميكروفيلم! ألهذه الدرجة تحوّلت إلى حيدر!

أريد أن تمضي أيّام الأسبوع سريعًا لكي أعرف ما الذي سيحدث مع حيدر، بل معي أنا بما أنّني أتحوّل إليه.

الأسبوع الثامن

"اليوم سنكون أطرافًا جديدةً في القصّة"، هكذا بدأت الآنسة ديمة الدرس، وطلبت منّي أن أقود الإحماء هذه المرّة. صحيح أنّني لم أنادِ بالحركات في ترتيبها الصحيح، لكنّني غطّيتها جميعًا؛ كان ذهني مشغولًا، وأنا أحاول أن أحزر من هم الأطراف الجدد.

سألت الآنسة، وهي تغطّي الشارة على صدرها وتقف بانتصاب كجنديّ يحيّي العلم:

"أريد منكنّ أن تتخّيلن أنّنا في الجانب الأردنيّ، في مبنًى مستحدثٍ للمفوضيّة السامية لرعاية شؤون اللاجئين في الجهة الأردنيّة من الحدود مع العراق سنة 2003، وأنّ قائدة الفريق ستزوركنّ لكي تتباحث معكنّ حول من سنسمح بدخوله إلى الأردنّ، ومن لن نسمح بدخوله. هيّا نجلس كأنّنا في اجتماع، وسنبدأ بمجرّد أن تستوي الجلسة."

قرأنا الشارة على صدرها: "كبيرة الموظّفين".

وبدأت قائدة الفريق بتحيّة جهودنا نحن الموظّفين الذين تعبنا كثيرًا خلال هذه المدّة الصعبة، ثمّ أخبرتنا أنّ معايير اللجوء تختلف من مكان لمكان، حسب الدولة، وحسب التعليمات الصادرة من القيادة الدوليّة، وحسب الظروف. لذلك، فهي تريد منّا أن نساهم بآرائنا في صياغة المعايير التي سنقبل على أساسها اللاجئين.

بوصفي موظّفةً أردنيّةً قلت: "يجب أن نسأل الأمن الأردنيّ عن معاييرهم في هذا الشأن."

فوجّهت قائدة الفريق خطابها إليّ: "بالفعل هذا مهمّ، ولكن ماذا تعتقدين أن يكون رأيهم؟"

أجبت: "أظنّ أنّ مسألة القيود الأمنيّة مهمّة جدًّا، فالأمن الأردنيّ لا يريد مجرمين على أرضه."

دار نقاش طويل حول كلّ شيء: وجود أقارب في الأردن بوصفها دولة عبور، وجود أقارب في الدولة التي ستكون مستقرًّا، المستوى التعليميّ، المهارات،

الأمراض المزمنة، الحالة الصحيّة، عدد أفراد الأسرة... إلخ.

وبدأنا في ضوء ذلك بإعداد الطلب، وعندما اقتربنا من النهاية، قاطعتنا كبيرة الموظّفين قائلةً:

"بسبب التعليمات الآتية من القيادة، لا بدّ أن نضيف خانة الديانة، والمذهب، وكذلك تصريحًا شخصيًّا من اللاجئ بأنّه لن يشكّل خطرًا!"

تحدّثت أنا وسناء في الوقت ذاته، فطلبت منّا كبيرة الموظّفين الانتظام، ثمّ قالت سناء: "أليست دول اللجوء تمنع التدخّل في معتقدات الناس؟"

فردّت كبيرة الموظّفين بطريقة متعالية: "هذه هي التعليمات!" ثم عقّبت: "بعض الطوائف تكون أكثر تضرّرًا وأحوجَ للجوء من أخرى. ماذا لديك أستاذة غادة؟" ولأنني لم أقتنع بإجابتها قلت:

"في الحقيقة أنا سؤالي عن أمر آخر: أليس من الحماقة سؤال الشخص إن كان يشكّل خطرًا أم لا! هل يعترف الخطر بكونه خطرًا؟"

وبصراحة، كنت أعرف الردّ مسبقا: "التعليمات".

إذا كانت كلّ الوظائف بهذا الشكل، فأنا لا أريد أن أكون موظّفةً على الإطلاق، فأنا أنتظر انتهاء الدراسة من أجل أن تنتهي التعليمات يومًا.

تحرّكنا في الغرفة، وتبادلنا الطلبات التي كتبناها حسب تعليمات المعلّمة التي عقّبت:

"في مخيّم اللجوء، أناس كثر يفعلون أشياء مختلفة. ستتحرّكن في القاعة، ثمّ لدى سماعكنّ للتصفيق ستشكّلن بأجسادكنّ تمثالًا للاجئ في لحظة ما، وإذا وضعت يدي فوق رأس إحداكنّ ستخبرني بالذي تفعله."

كان المخيّم مكتظًّا بالناس، بعضهم ينظّف الخيمة، وبعضهم يقف إلى السلك الشائك مترجّيًا الأمن ليدخله، وبعضهم يحاول الحصول على الماء، وآخرون يحاولون الحصول على الطعام، وفي خيمة كانت إحداهنّ تضع مولودًا، وآخر يبيع خدماته للاجئين الآخرين. ثمّ عدنا لتكون كلّ منا الفتى حيدر.

كنت أجلس مع والدتي نسمع نشرة الأخبار على المذياع من الخيمة المجاورة، وعرفنا ما حدث في المتحف.

عرضت علينا الأستاذة شريطا لما يحدث في المتحف العراقيّ، وكيف أنّ الناس دخلت وسرقت موجوداته، بل وكسّرتها أيضًا. ثمّ أتمّت النشرة بلسانها: "وردنا الآن، وُجِد مدير المتحف العراقيّ الدكتور كامل حسين مقتولًا، ويستبعد الخبراء تبعًا لتفاصيل الحادثة أن يكون قاتلَه أحدُ المواطنين المندفعين إلى المتحف بقصد السرقة."

خيّم الصمت علينا، وغطّى قلبي حزن خشن دون أن تنزل دمعة واحدة من عيني، حتى إنّني لم أستطع النظر في عينيّ والدتي. هرعت إلى رسالة أبي لأقرأها مرّة أخرى، ولـمّا وصلت للجملة التي يطلب فيها أن أكون رجل البيت من بعده، استجمعت قواي وبكيت بحرقة.

لست وحدي من بكى، كلّ الطالبات تقريبًا كنّ في حالة من الاندماج العميق، فقامت الآنسة ديمة تعانقنا واحدة تلو الأخرى، وصرنا نعانق بعضنا.

وقبل أن يرنّ جرس الحصّة، طرقت الآنسة الباب، ونادت: "حيدر... موعدك غدًا مع مفوّضيّة اللاجئين! سنرى يا بنات ما سيحدث مع حيدر في الأسبوع المقبل!"

هكذا، وبسبب ما تفعله الآنسة ديمة، نعيش في ترقّب ليوم الأربعاء، ننتظر حصّة الدراما، لنكون أشخاصًا آخرين، لتصبح كلّ فتاة في الصفّ الفتى نفسَه. وإذا كان حيدر يعيش حزنًا يشوبه ترقّب المقابلة لليلة واحدة، فنحن عشنا أسبوعًا كاملًا ننتظر، ما جعل الحزن يخفت، والترقّب يزداد.

تسيطر عليّ فكرة غريبة جدًّا: إذا نجحت بصفتي حيدر بالدخول إلى الأردنّ، فقد أقابله بصفتي غادة! أعرف أنّها فكرة غبيّة، إذ إنّ أحداث قصّة الدراما تدور قبل ولادتي!

الأسبوع التاسع

(تقوم الدراما على استبعاد اللحظات غير الحاملة لمعنى من القصّة)

أخيرًا، بعد طول انتظار، أشرقت شمس اليوم، ومضيت نحو مكتب المفوّضيّة إلى موعد مقابلتي، كانت والدتي حزينةً بسبب خبر مقتل أبي الذي وصلنا أمس. بلى، كنت حزينًا جدًّا، لكنّني استجمعت قوّتي عملًا بوصيّته.

كنّا قد ملأنا طلب اللجوء معًا، وعرفت من والدتي كامل التفاصيل، وقرّرت والدتي أن تبقى في الخيمة. أوقفني الحرس وسألوني إن كنت أحمل شيئًا خطرًا، ثمّ أدخلوني لأقابل الموظّفة المتخصّصة. لم أتوقّع أن يكون الحديث معها بهذه السلاسة. كانت تسأل أسئلة يمكن أن يكون لها جواب طويل وآخر قصير في آن معًا، وكانت تقبل إجاباتي المقتضبة التي تخرج منّي كلهاث شخص أنهكه الهرب.

وقبل أن تنتقل للمرحلة الثانية من المقابلة، همست لي: "هل الدكتور كمال حسين والدك؟" فأجبتها: "رحمه الله"، أحسست أنّها اطمأنّت لكونها لن تضطرّ إلى إعلامي بالخبر، ثمّ أتمّت: "نستطيع أن نؤجّل المقابلة إلى الغد إذا أحببت." قلت: "لا، لنجرها الآن." وبدأت بالأسئلة:

- لكم قريب من جهة أمّك في الأردنّ، كنيته "أبو سالم"، فهل قابلته؟
- لا، لقد هاجر من العراق أيام حرب الكويت، ولا أعرفه شخصيًّا، لكنّ أهلي على تواصل معه.
- هل له عمل مستقرّ؟
- نعم، عرفت من والدتي أنّه فتح منجرة بالشراكة مع أردنيّ.
- هل تعرف أنّ الأردنّ على الأغلب لن تكون بلد المستقرّ لكم؟
- نعم، وقد كتبنا الطلب على هذا الأساس.

-صحيح حيدر، هذا واضح في طلبك. ويبدو أنّك تطمح إلى دراسة الفنون الجميلة، لكن هل تعلم أنّ المستقبل المهنيّ في قطاع الفنون قد يكون شائكًا؟

-أعلم ذلك، ولكن أنا أعرف موهبتي جيّدًا، وأعرف أنّني سأنجح.

-عليّ أن أتأكّد من أنّك تعرف أنّ إقامتكما في بلد العبور قد تطول.

-كم سنظلّ في الأردنّ؟

-ليس ثمّة مدّة محدّدة على الإطلاق، قد تدوم الإقامة شهرًا أو سنتين، وربّما أقلّ من ذلك أو أكثر. نحن لا نتحكّم بهذا.

-ومن الذي يتحكّم بهذا؟

-الوزارات المعنيّة في بلاد اللجوء، لا نحن.

-أفهمك، أنت موظّفة تقومين بعملك.

-حيدر عزيزي، البلدان التي وضعتها في طلبك تستقبل لاجئين من خلفيّات محدّدة.

-أتقصدين أنّني لست مرشّحًا للجوء إلى أحدها؟

-البلد الذي يناسب وضعك أكثر هو الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

شعرت بغصّة عندما سمعتها تسمّي البلد الذي دمّر العراق، لكنّني حافظت على تعابير وجهي السابقة، ولم أظهر شيئًا، فأتمّت:

-معك الوقت لاستشارة والدتك، ولن أطالبك بالإجابة فورًا، لكنّ عبوركما أنت ووالدتك إلى الأردنّ سيكون أسرع إذا طلبت اللجوء إلى أمريكا. هذه معلومة مجرّدة وليست دعاية لشيء.

-ولكن...

-لن أقبل منك جوابًا الآن، اذهب إلى أمّك وتشاور معها، وسأنتظرك غدًا.

قمت عن الكرسيّ أحسّ أنّ لي رجلين من خشب، ومشيت باتّجاه باب القاعة أتعكّز عليهما. أيقظني تصفيق الزميلات لي وللآنسة ديمة، وانتبهت أنّه كان مشهدًا مسرحيًّا تجريبيًّا.

بدأ النقاش بين الطالبات وبين الآنسة، وكنّا نحن الطالبات نلعب دور حيدر، بينما كانت تلعب هي دور الأمّ، ورغم معارضتي الشديدة، وصل الصفّ إلى قناعة أنّ تعديل بلد المستقرّ إلى الولايات المتّحدة هو الخيار الأنسب، أو ربّما الوحيد. بالمناسبة لا يعجبني تعبير "الخيار الوحيد"؛ كيف يكون خيارًا إذا كان وحيدًا!

ثمّ رجعنا إلى كوننا طالبات في مدرسة، وأخذت المعلّمة تشرح لنا فكرة المسرح الابتكاريّ، وأنّنا إذ نستكشف قصّة حيدر، نحضّر في الوقت نفسه أنفسنا لتقديم مسرحيّة، بل ونكتب المسرحيّة والأحداث، وندرّب عددا من الطالبات على أداء الأدوار نفسها، فيكون لدينا ممثّلة احتياطيّة أولى

وثانية، لكي نضمن عدم تعطّل المسرحيّة بسبب ظرف شخصيّ لدى إحدانا.

في نهاية الحصّة طلبت الآنسة إلينا أن ندوّن جملةً في سجلّ اليوميّات، ثمّ كتبتها على اللوح:

"تقوم الدراما على استبعاد اللحظات غير الحاملة لمعنى من القصّة"

وأردفت:

"أقول هذا يا بنات، لكيلا تستغربن القفزات في الزمن."

فهل بحلول الأسبوع المقبل سنكون في أمريكا؟ لا أعلم... سأنتظر، فلا خيار لي في ذلك، كما لم تكن ثمّة خيارات حقيقيّة أمام حيدر.

الأسبوع العاشر

1

لا أعرف لماذا أحسّ أنّني ملزمة بإخبار السجلّ بقصّة حيدر بالتفصيل. أنا متأكّدة أنّ زميلاتي يكتبن في سجلّاتهنّ عن الأشياء التي يتعلّمنها عن الدراما مثلا، وقد يكتبن عن مشاعرهنّ أثناء الحصّة، أمّا أنا فقد نسيت مشاعري تمامًا منذ أن بدأت حكاية حيدر. عند القراءة أتلمّس مشاعري في طريقة كتابتي عن الحدث. أظنّ أنّني أتابع الكتابة بحكم العادة، ثمّ إنّ التجربة تكتسب بُعدًا جديدًا عند الكتابة عنها.

طلبت إلينا الآنسة الآن أن نكتب في السجلّ أكثر ما أحببناه في حصص الدراما حتّى الآن، وأكثر ما كرهناه، ثمّ خرجت من القاعة لتتحدّث مع المديرة في أمر طارئ، وها أنا أحاول أن أقطع الوقت دون أن أكتب عن ذلك. هل أنا متعلّقة بالقصّة لدرجة أنّني فقدت الإحساس بالحصة وبنفسي! حسنٌ، سأكتب ذلك.

أكثر ما أحببته في حصص الدراما هو أنّني أستطيع أن أكون أيّ شخص أريد، أو أيّ شخص أحتاج أن أكونه في القصّة.

أما أكثر ما كرهته فهو أنّ جدولنا الأسبوعيّ ليس فيه إلّا حصّة دراما واحدة!

دخلت الآنسة ديمة، وتبعتها مديرة المدرسة سائرةً إلى أقصى القاعة، ثم جلست بهدوء دون أن تنظر إلينا. سهّل هذا علينا أن ننسى وجودها. أسدلت الآنسة ستائر القاعة الخلفيّة، وأبقت على الضوء جهةَ اللوح، ثم كتبت بخط عريض بالطباشير: "2005 عمّان".

رفعت الآنسة يدها اليسرى عن الشارة على صدرها فظهر اسم "أمّ حيدر"، وجلست على الكرسيّ تحت الضوء. لم أكن أتخيّل أمّ حيدر على صورة الآنسة ديمة، لا من جهة العمر ولا المظهر العصريّ.

وقبل أن أفهم الموقف، كانت زميلتي سناء تسأل:

–أم حيدر، أخبرينا... أين حيدر؟

فأجابت الآنسة ديمة:

–حيدر الآن في المنجرة، يعمل مع زوجي أبي سالم.

سألت زميلة أخرى:

-هل تزوّجت منه!

-عرض أبو سالم عليّ الزواج، وهو ابن عمّي، ووجدت أنّ وضعي أنا وحيدر مع هذا الزواج أفضل من عدمه.

تدخّلت أنا:

-وماذا كان رأي حيدر في زواجك؟

-في البداية عارض بشدّة، لكنّه لـمّا رأى أنّ العمل صعب علينا بصفتنا لاجئين، وأنّ راتب المفوّضيّة لا يكفي، وبعد تعقيدات كثيرة وحديث طويل... قبل بذلك.

وانهالت أسئلة الطالبات:

-كم يبلغ راتب المفوّضيّة؟

-35 دينارًا للفرد شهريًّا.

-وهل المبلغ كافٍ ليوفّر لكما مقوّمات الحياة؟

-لا، السبعون دينارًا تكفينا أسبوعين فقط.

-صفي لنا حياتك مع زوجك وابنك؟

-الآن أعيش مع زوجي فقط، ابني حيدر صار شابًا راشدًا، وهو الآن يعيش مع شباب عراقيّين في شقّة مشتركة، ويعمل مع عمّه في المنجرة.

-أليس العمل ممنوعًا للاجئين؟

-إذا تعاون صاحب العمل، يمكن إخفاء ذلك عن الرقابة الحكوميّة، والحكومة أحيانًا تغضّ الطرف. هذا ما يحدث. نحن نريد أن نعيش لا أن نجمع ثروة.

-كيف تدبّرتما أمركما قبل الزواج؟

-كنت قد حملت معي مبلغًا من المال، بالإضافة إلى ذهبي وساعات ثمينة كانت للمرحوم أبي حيدر، أمدّني ثمنها وما معي من مال لأتدبّر أمرنا مدّة ستّة أشهر.

-منذ متى غادر حيدر المنزل؟

-منذ أن يئست من مسألة الهجرة، فهي لن تحدث، لكنّه يصرّ على أن يستمرّ في طلب اللجوء وحده.

-متى حدث ذلك؟

-أخبرته أنّ زواجي من ابن عمّي لن يستمرّ إذا بقي هو في المنزل، وأنّ أفضل الخيارات هي أن يظلّ في المنجرة، وأن يعيش مع أصدقائه لأنّ بيتنا صغير جدًّا.

-وكيف تحتملين أن تطردي ابنك من المنزل؟ ألا تشتاقين له؟ ألا تفكّرين كيف ينام، وماذا يأكل؟

-ابني يسكن على مقربة منّي، ويأتي ليتناول فطوره هنا في المنزل، وكذلك يأتي ليتناول وجبة العشاء. لا تقلقن أنا أعرف مصلحة ابني. هذا الوضع هو الوضع الأنسب ضمن ظروفنا، لا تحكمن عليّ.

-أين تسكنين، وأين يسكن حيدر؟

-أسكن في حيّ الملفوف وهو حيّ شعبيّ قرب الدوّار الثالث في عمّان، وابني حيدر يسكن في جبل القلعة. في الحقيقة بيننا شارعان فقط يقطعهما حيدر سيرا على الأقدام، لا سيّما أنّ منجرة زوجي قريبة من بيتي.

-كيف تجدين الزواج من نجّار، بعد الزواج من عالم آثار؟

-أبو سالم يحمل شهادات عليا، لكنّه كان على خلاف مع النظام العراقيّ القديم، ولذلك غادر البلاد، وقد ترك زوجته وأولاده في العراق، ثمّ انفصلت عنه زوجته، ولذلك فلا تتسرّعن بالحكم عليه، هو شخص مثقّف لكنّه واقعيّ ويعرف كيف يتأقلم مع الظروف الجديدة، ثمّ إنّ الحكم على شخص من مهنته ليس أمرًا صائبًا.

-هل يتابع حيدر هواية الرسم؟ وماذا عن الدراسة؟

- بطريقة أو بأخرى، نعم. إنّه يصمّم قطع الأثاث، وأحيانا ينحت تحفًا تبيعها المنجرة. أمّا فيما يخصّ التعليم، فإنّه ينتظر أن يأتي الردّ على طلبه للجوء. إذا هاجر فإنّه ما يزال ينوي متابعة دراسة الفنون.
- الشباب الذين يعيشون مع حيدر، هل يعملون؟
- الوضع معقّد، بعضهم لجأ أهلهم إلى بلدان أوروبية، وهم يرسلون لهم بعض المال، وبعضهم يعمل مع شخصيّات بارزة، أو في أعمال غير ثابتة، لكنّهم في النهاية يتشاركون في دفع أجرة البيت الصغير الذي يسكنونه.

للحقّ، أنا لا أذكر الأسئلة فعلًا. أنا أتذكّر حال أمّ حيدر، وأعيد صياغة الأسئلة والإجابات. علمنا من الجلسة أنّ القصّة لم تصل إلى حلّ، ما يزال حيدر متكتّما على أمر الميكروفيلم، ولم يخبر حتى والدته به، وما يزال يحلم بالخروج، وما تزال ظروفه صعبة.

بدا لي من المقابلة أنّ أمّ حيدر تكابر في شأن قرار زواجها، فزواجها ليس سعيدًا مع أنّ زوجها لا يضربها كما ظنّت بعض الطالبات، لكنّ ضيق الحياة كضيق المكان يجعل الناس غير مرتاحين، وغير مريحين في آنٍ معًا. بدت أمّ حيدر مضغوطة كشطيرة وضعت في الحقيبة مع الكتب. وضع اللاجئين المعلّق مسألة أخرى، إذ إنّ أكبر مشاكل حيدر هي شعوره بعدم الاستقرار. هذا ما يمنعه من قبول الأمر الواقع ومحاولة التأقلم معه كما تفعل أمّه.

جاء رنين الهاتف ليخرجنا من قصّة حيدر بصورة مفاجئة، فنظرت الآنسة ديمة إلى آخر القاعة بانزعاج واضح، التفتنا جميعًا إلى الوراء فانتبهنا لوجود المديرة هناك في الظلّ. ياه كنّا نسيناها كليًّا! قامت المديرة من مكانها، وتحرّكت نحو الباب وهي تعتذر، كانت تمشي على رؤوس أصابعها وكأنّ ذلك يلغي رنين الهاتف! وكانت الآنسة ديمة تبتسم ابتسامةً مطمئنة، وتومئ أنّها قبلت الاعتذار.

أخبرتنا الآنسة حينها أنّه سيكون لدينا المزيد من الزوّار، وأنّ علينا التركيز في الحصّة والقصّة، وعدم التأثّر بالجوّ المحيط أثناء تنفيذ نشاط دراميّ. انتبهنا حينها إلى أنّ المدرسة تضجّ بأصوات ما قبل الفرصة، وهذا يعني أن الجرس يوشك على الرنين، وأوشك أن أرى ما حلّ بشطيرتي المحشورة بين الكتب.

عندما خرجنا إلى الساحة، كانت الطالبات يتداولن الإشاعات:

- المديرة هنا لأنها رافضة لحصص الدراما وتريد إيقافها.
- الآنسة ديمة متطوّعة لا تأخذ راتبًا، وهي هنا بمبادرة منها. ألم تروا كيف أبدت الانزعاج من المديرة، وكانت المديرة تعتذر.
- العرض المسرحيّ هو الحصص نفسها، ولن يكون ثمّة مسرحيّة حقيقيّة كما قالت الآنسة.
- المديرة هنا لتنتقي من سيشارك في العرض المسرحيّ، لذلك علينا أن ننال إعجابها.

لن أستطيع تعداد الإشاعات كلِّها، حتّى لو حاولت ذلك، لكنّ حضور آخرين لحصّة الدراما كان أمرًا نحتاج أن نعتاده، فالجمهور يغيّر من سلوكنا، وربّما كان هذا مقصد الآنسة ديمة من إحضار زوّار إلى القاعة. هذا أكثر تفسير مقنع لي.

ما خرجت به من الحصّة أمر آخر: الحديث عن حيدر جعلنا نشتاق إليه أكثر. أتخيّل أنّنا لو لم نشعر بوجود المديرة، لكان حديث الطالبات في الفرصة عن حيدر كالعادة.

الأسبوع الحادي عشر

دخلت الآنسة حاملةً رزمة من الأوراق، ووضعتها جانبًا، ثمّ طلبت إلينا أن نعجّل بالإحماء لأنّ "الحصّة ستكون طويلةً". على فكرة يا آنسة ديمة: الحصّة وقتها ثابت لا يتغيّر! لكنّني فهمت ما كنت تقولين.

أربك هذا الطلب صديقتي مرح فنسيت بعض خطوات الإحماء، لكنّنا نبّهناها لأنّ بعضنا قاد الإحماء من قبل. وفوق هذا كان مربكًا لنا أنّ مجموعة من الضيفات زارتنا اليوم، دخلن ونحن نجري الإحماء. لم أتعرّف عليهنّ، لكنّني رأيت الأستاذة ماذا كان اسمها؟ مديرة المدرسة المسائية بينهنّ. نسينا أمر الضيفات سريعًا هذه المرّة بمجرّد أن بدأت الآنسة ديمة بنص سرديّ:

"كان حيدر يصعد الأدراج شاعرًا ببرودة النسيم المارّ بين البنايات في الممرّ الصاعد إلى منزل أبي سالم، حيث يتناول فطوره اليوميّ الذي تعدّه أمّه، ثمّ يمضي مع

أبي سالم إلى المنجرة. ولـمّا بات على مقربة من الباب... سمع صراخ أبي سالم على والدته، فوقف."

وكانت تمثّل دور حيدر وهي تقصّ علينا ما حدث، ثم أكملت: "أريد منكنّ يا بنات أن تشكّلن جداريّة تتابعيّة: تخرج إحداكنّ فتلمسني ثمّ تتّخذ وضعيّة تعبّر عن مشاعر حيدر أو أفعاله أو نواياه، ثمّ تخرج زميلتها الأخرى فتلمسها أو تلمسني ثمّ تتّخذ وضعيّتها... وهكذا إلى أن نكون كلّنا داخل الجداريّة.

كانت سناء أوّل من بادر، وقفت خلف الآنسة ديمة واضعة أذنها على ظهرها، وكأنّها تتنصّت على ما يحدث بين أمّها وأبي سالم. بعد ذلك وقفت طالبة أخرى تشدّ قبضتها وتزرع قدميها في الأرض تعبيرا عن الغضب الذي ينتاب حيدر. الأخرى رأت حيدر يشمّر عن ساعديه كأنّه مقبل على شجار، ثمّ تكوّر حيدر على نفسه متكئًا على جدار اللوح، ثمّ بدا حيدر وكأنّه يهرب لعالم الخيال في شرود عميق. فتاة

أخرى جعلت حيدر يهرب فعليًّا من المكان، وأخرى جعلته يجلس على الدرج بانتظار أن ينفضّ الشجار.

كانت الطالبات يخرجن واحدة تلو الأخرى، وأنا متسمّرة مكاني، أفكّر أيّ الخيارات هو الأفضل، وبقي إلى جانبي أربع فتيات. خرجت إحداهنّ وجعلت حيدر يجري مكاملةً هاتفيّة، فقرّرت ألّا أبقى مكاني كي لا أكون آخر من يتحرّك.

وأنا أحاول اتّخاذ الوضعيّة المناسبة خطر لي أنّ الحيرة ذاتها موقف، فمددت يديّ ورجليّ على طولهما إلى جانبيّ، ومثّلت حيدر مشدودًا لليمين واليسار في الوقت ذاته. وبمجرّد أن تحرّكت أوّل طالبة بعدي، لم أعد نادمة على التأخّر، فأنا لم أستطع أن أرى الذي تمثّله الفتيات التاليات تماما. لكنّ الآنسة ديمة طلبت إلينا أن نعطي فرصة لأوّل من خرج أن يرى الجداريّة. صرنا نفكّك الجدارية من أوّل تمثال فيها إلى آخر تمثال شيئا فشيئًا.

ثم قالت الآنسة: "أنتنّ أصوات في رأسي، وأنا حيدر... تكلّمن معي."

قالت مرح: تدخّل وأوقف الشجار يا حيدر!

ردّت الآنسة ديمة: ولكنّ أمّي لا تريدني أن أتدخّل في حياتها الزوجيّة.

جاء الصوت من ورائي: إذًا اسبق أبا سالم إلى المنجرة، ووفّر على أمّك الإحراج!

ردّ حيدر: وماذا لو ضربها أبو سالم؟

- عليك أن تفعل شيئا.
- هل عليّ أن أفعل شيئًا بالفعل؟ وما هو الخيار الأنسب؟
- اتّصل بالشرطة...
- ما أسهل الكلام! أليس هذا تدخّلًا في حياة أمّي، ثمّ إنّ هذا يعني خسارة عملي في المنجرة، أين سنسكن بعدها؟
- تأخذها معك إلى حيث تسكن.

-أقيم في شقّة شباب، ولن يكون الوضع مناسبًا لها.

-كيف تعرف أنّك تسكت بسبب الحفاظ على خصوصيّة الزواج، لا بسبب حفاظك على العمل؟

-أستطيع أن أترك العمل، وحينها لن أكون ورقة ضغط بيد زوج أمّي عليها!

دار حديث طويل طويل، ولم تترك الطالبات خيارًا إلّا اقترحنه، وأبدت طالبات تعجّبهنّ من اقتراحي لحيدر أن يفكّر أن قبول الإساءة ذنب والدته، وأنّه يجب ألّا يحسّ بالذنب.

ثم جعلتنا الآنسة نتحرّك بسرعة تتناسب مع توتّر القصّة التي تقرؤها، وكانت محتارة بين الأوراق وهي تلقي علينا التعليمات، ثم برّرت تأخّرها: "أحاول أن أختار النصّ المناسب للخيار الذي تبنّاه معظمكنّ."

كانت لديّ رغبة عارمة بأن أذهب وأقرأ الأوراق كلها، لأعرف ما سيحدث في كل الاتجاهات، لكنّ صوت الآنسة ديمة أخرجني مما أنا فيه، وبدأت أتحرّك ببطء وهي تقرأ:

"عرف حيدر أنّه نقطة ضعف أمّه، وقرّر أن يترك العمل في المنجرة نهائيًّا، فأدار ظهره ونزل الأدراج باتّجاه وسط البلد. كان يقول في نفسه: ألم يقل أبوك إنّك رجل العائلة من بعدي! تبًّا!..."

بدأت الطالبات يخبطن أرجلهنّ بالأرض وهنّ يتجوّلن في القاعة. والآنسة تقرأ: "هوّن عليك، هوّن عليك، اختيارات الإنسان تتحدّث عنه، لكنّ خياراته تتحدّث عن ظروفه. هذا ما قاله حيدر لنفسه، وكان يمشي بسرعة، باتّجاه ساحة فيصل، لينعطف نحو شارع الملك حسين باتّجاه أدراج جبل القلعة، حينها تفاجأ بوجه أبيه! نعم إنّه أبي يجلس هناك" هنا ودون أيّ اتفاق، تجمّد الصفّ كلّه في مكانه. ثمّ تابعت: "نظر حيدر إلى الرجل الجالس خلف

صندوق ملوّن، فرأى أن ملامحه تشبه أباه كثيرًا، لكنّه ليس الدكتور كمال حسين بكلّ تأكيد." فعادت الحركة إلى الصفّ.

"كان شبيه الدكتور كمال رجلًا بملامح عراقيّة جنوبيّة، يضع صندوق تنظيف الأحذية أمامه. ففكّر حيدر: ها هو قد وجد مهنة شريفة، ولم يعمل في منجرة قريب يسيء إلى أمّه. ثمّ عادت إلى ذهنه صور من الطفولة، لم يكن زواج أبيه وأمّه مثاليًّا، وكان يحدث أن يتصارخا هما أيضًا.

عاد من شروده لينظر إلى الرجل، وأغمض عينيه ليستعيد صورة والده الدكتور كمال، فارتسمت على وجهه ابتسامة رضا. جاءت من مكان بعيد، ومن زمن بعيد.

تذكّر حيدر أنّ عليه دفع حصّته من الأجرة لشركاء السكن، وأنّ اليوم كان يوم قبض مرتّبه... وأخذت الأسئلة تدور في رأسه: هل أعود لآخذ حقّي من زوج أمّي؟ هل سأحتمل رؤيته؟ وسار نحو الصرّاف الآليّ

مقابل ماسح الأحذية تمامًا. أدخل بطاقة الصرّاف المخصّصة للاجئين، فرأى أن راتب المفوّضية لم ينزل في رصيده بعد.

استعاد حيدر البطاقة ومدّ يده في جيبه، جمع ما فيها كلّه وأخرجه أمام عينيه، فإذا بقليل من الفكّة المعدنيّة. نظر فيها مطوّلًا ثمّ سار نحو العمّ الجالس خلف صندوقه، وناوله الدراهم. التقط الرجل منه المال، ثم نزل بنظره إلى قدمي حيدر، منتظرًا أن يمدّ إحداهما ليكمل الرجل عمله، فنزل حيدر إلى أن بات مقابل بصره، وابتسم.

أتمّ حيدر طريقه باتّجاه البيت..."

رفعت الآنسة بصرها عن الورقة التي تقرأ منها سائلةً:

"ورد في النصّ مشاعر كثيرة، لكن لم يرد شرح السبب الذي دفع حيدر لإعطاء ما معه للعمّ، فما السبب برأيكنّ؟"

مرّ وقت ونحن نحاول أن نحزر، لكنّ الإجابات جميعها كانت تتحدّث عن مشاعر حيدر، فحينا نراه ينتقم من قلّة المال بالاستغناء عنه، وحينا نظنّ أنّه يئس ولم يعد بوسعه الاستمرار، وهكذا... وبدأت الآنسة تشرح عن مستويات المعنى في الدراما.

سأكون كاذبةً كبيرةً لو تجرّأت وقلت: إنّني أتذكّر شيئًا ممّا قالت. لكنّني سأستعين بدفتر سناء، فقد كانت تدوّن كلّ ما يبدر من المعلّمة، حتّى إنّها كانت تكتب كلمات قالتها المعلّمة خارج سياق الدرس. أنا متأكّدة أنّني قد أقرأ اسمي في دفترها. أمّا أنا، فقد كنت جالسةً على الأرض أحتضن ركبتيّ بذراعيّ، وأطبّق ما تقوله على حيدر.

سأحاول أن ألتزم بالغرض الأساسيّ من السجلّ كما كرّرت المعلّمة عدّة مرّات. حسنٌ، كنت أيضًا أعكس كلامها على نفسي أنا غادة؛ كم مرّة فعلت شيئًا مختلفًا عن المعنى الذي أحاول التعبير عنه! ياه الإنسان بالفعل كائن مركّب. سأبدأ بالتفكير في ما

يغضبني من أبي وأمّي وإخوتي، فقد يكون الحبّ وراء بعض ما يغضبنا.

بعد ذلك، قالت المعلّمة ضامّةً يدها إلى صدرها:

"لنعد إلى الدراما الفعليّة. ستعرفن من أنا بعد قليل، لكن قبل ذلك أريد أن أخبركنّ أنّ حيدر عاد إلى المنزل ونفد رصيده وهو يحاول التواصل مع المفوّضية ليسأل عن راتبه دون جدوى. أخيرًا قرّر النوم. هيّا نمن، الأرض نظيفة. واستيقظ على صوت الباب يقرع."

قرأنا شارة الاسم على قميص الآنسة: (آدم).

صاحت إحدى الطالبات: "مين؟" تقصد "من" لكنّها اندمجت لدرجة أنّها نسيت أنّنا نعتمد الفصيحة داخل حصّة الدراما، فتجاهلت المعلّمة ضحكنا مقاطعةً: "أنا صاحبك آدم... افتح الباب يا حيدر!" قامت إحدى الطالبات، وفتحت الباب فدخل آدم، وجلس على كرسيّ وسط القاعة.

-حيدر، كنت أظنّ أنّك عدت للتوّ من المنجرة! هل كنت نائمًا؟

-نعم، لم أذهب اليوم إلى العمل.

-أف! ألم يتّصل بك عمّك أبو سالم؟

-فليذهب إلى الجحيم! لا أريد أن أراه بعد الآن.

-هل لي أن أسأل ما السبب؟

-الموضوع شخصيّ... (قالت سناء قاطعةً الطريق على إحدى الطالبات التي يبدو أنّها كانت تنوي أن تخبر آدم بقصّة زوج أمّه.)

-براحتك حيدر، لا أريد أن أضغط عليك.

-لكن ماذا تنوي أن تعمل؟

-أيّ شيء، حتّى لو مسحت الأحذية! (قالت طالبة) سأجلس في الشارع وأرسم الناس. (قالت أخرى).

-طيّب، لا تنفعل... ربّما جاء هذا الخلاف في الوقت المناسب.

-كيف ذلك؟

-عرف السياسيّ العراقيّ الذي أعمل معه أنّ ابن الدكتور كمال حسين صديقي، وهو يريدك أن تعمل معه. فما رأيك؟

-موافق. (قالت سناء) لا لا انتظر، ما هو العمل؟ (سألتُ مقاطعةً زميلتي).

-لا أعرف التفاصيل، لكنّه بدا مهتمًّا كثيرًا بك. حتّى إنّه يعرف أباك، وكان زميله في المتحف، ويعرف سائق المرحوم أبيك أيضا.

-هل يريد أن يتصدّق عليّ!

-لا تكن حسّاسًا، الرجل يعرض عملًا، وأنت بحاجة إلى عمل... وافق وسأرتّب لك لقاءه، وحينها ستفكّر.

وقبل أن ينهي آدم كلامه، كان وقت الفرصة حان، وحان معه وقت الإشاعات. لا أصدّق أنّني لم أصنع إشاعة بناء على تعرّفي على إحدى الضيفات، كنت

منشغلةً كأنّني حيدر بالتفكير في هذا الرجل الذي كان زميلًا لأبي! من هو؟ وماذا يريد؟ ولماذا الآن؟ وهل كان من زملاء أبي الجيّدين أم المتورّطين بالسرقة؟ وما العمل الذي أستطيع أن أؤدّيه لسياسيّ كبير مثله!

هل هذه هي الطريقة الوحيدة يا آنسة ديمة؟ ألا تستطيعين أن تروي غليلنا، وألّا تتركينا متشوّقات إلى الحصّة القادمة!

الأسبوع الثاني عشر

1

مرّت بنا الآنسة ديمة برفقة مديرة المدرسة خلال حصّة مربّية الصفّ، فصرنا نتهامس بأنّ هذا وقت إعلان اللواتي اخترن لتقديم المسرحيّة أمام المدرسة، لكنّ الآنسة ديمة جاءتنا بمفاجأة، لم تخطر على بال إحدانا:

"تاسع جـ، يا بنات اسمعنني جيّدًا، سألتني بعض الفتيات، ربّما بسبب كوني جديدة في المدرسة، إن كنت متطوّعةً أم موظّفة من قبل التربية، وعليه فأنا أريد أن أشارككن بما أفعل على الحقيقة..."

هنا، كنت أقول في سرّي: يا للهول، هل كانت تفعل شيئًا آخر غير الذي نراه؟ الآن سنعرف الإشاعة من الخبر! سوف يذوب ثلج الإشاعات عن مرج الحقيقة.

قاطعتها مديرة المدرسة:

"آنسة ديمة، أتسمحين؟

عزيزاتي طالبات التاسع، كانت الآنسة ديمة تعمل في ثلاثة أماكن خلال المدّة السابقة، كانت تدرّسكنّ الدراما من جهة، وتدرّس أيضًا في المدرسة المسائيّة، وهما وظيفتان تطوّعيتان نشكر الآنسة ديمة عليهما، بالإضافة لكونها باحثة أتت لتجربة مشروع يقدَّم موثّقًا لوزارة التربية بأنشطته ونتائجه في سبيل أن يُقرّ برنامج دراميّ في المدارس الحكوميّة.

فهل أنتنّ متحمّسات لأن تكون حصّة الدراما حصّة ثابتة في مناهجكنّ؟"

وهذه أوّل مرّة تبتسم فيها المديرة عند سماع ضجيجنا:

تصفيق، صراخ حماسيّ، شكرا آنسة!، تصفيق مستمرّ...

"إذًا يا بنات....

اسمعنني قليلا، فنحن نحتاج أن نبلّغ الشعب الأخرى، يا بنات..."

وهدأ الصفّ بالفعل، فأتمّت المديرة كلامها:

"إذًا، أتوقّع منكنّ التعاون. هذا يشمل من نختارها لفريق التمثيل، ومن نختارها للفريق الفنّي في المسرح، ومن نختارها للفريق الإعلاميّ عن المسرحيّة، أو حتّى لو اختيرت أن تكون مراقبة ضمن الجمهور، سيكون لديكنّ مهمّات محدّدة، وسأعلمكنّ بها.

ستوزّع عليكن مربّية الصفّ موافقات لحضور التدريبات المشتركة مع المدرسة المسائيّة، تأكّدن من توقيعها من وليّ الأمر، وتسليمها إلى الآنسة ديمة قبيل حصّة الدراما بعد غدٍ الأربعاء. أمّا توزيع كلّ منكنّ فستعرفنه الأسبوع المقبل."

وصلت للبيت وأعطيت أمّي الورقة، فأبدت معارضتها لتأخّري بعد الدوام مدّة أسبوعين. ثمّ طلبت منّي "دفتر الدراما" تقصد هذا السجلّ الأسبوعيّ، فأعطيتها إيّاه.

وفي المساء نادتني أمّي لأجالسها هي وأبي، ثمّ ألقت عليّ محاضرةً تفصيليّة عمّا يجوز عمله وما لا يجوز،

وفي النهاية أشارت إلى أبي، فأعطاني نموذج الموافقة موقّعًا، مع تمنّياته للآنسة أمل بنجاح المسرحيّة.

أخيرًا جاءت حصّة الدراما، وأنا أقول بحماس لنفسي: اليوم سنعرف من هو هذا "السياسيّ"! إنّ اسمه تحت كفّ الآنسة في شارة الاسم على قميصها. وكأنّ اسمه سيعني لي شيئًا! بدأت الآنسة بأمر مختلف كلّيًا، ممّا زاد تشوّقي للقصّة أكثر فأكثر.

"من تحصّلت منكم على موافقة وليّ أمرها، أرجو منها أن تضع الموافقة على الطاولة." فقامت ثلاث عشرة طالبة فقط من أصل ثلاثين! وهنا، كنت أفكّر كم أحبّ أبي وأمّي، لأنّهما لم يعارضا مشاركتي في المسرحيّة، وكنت أريد عناق الآنسة ديمة، لقد بدت ملامح الخيبة واضحةً على وجهها، لكنّ الدراما أبعدت سحابة عدم الرضا تلك.

"ربّما حزرتنّ العرف الدراميّ الذي سنستخدمه الآن، ستكنّ حيدر في اليوم التالي لجلوسه مع صديقه آدم، أي يوم لقاء السياسيّ، لكن سنضيف شيئا جديدًا:

سيكون لديكنّ حرّيّة الحركة في الصفّ، وستأخذن موقعكنّ بناء على موافقتكنّ أو معارضتكنّ للعرض الذي سيقدّمه السياسيّ. إلى اليمين يعني موافق، إلى اليسار يعني معارض، وما بينهما درجات."

أطالت الآنسة الشرح وتمثيل دور الطالبة، لدرجة أنّني وددت لو أصرخ بزميلاتي: الأمر واضح! لماذا تكثرن الأسئلة!

كنت أريد أن نبدأ بأيّة طريقة. أخيرًا، قرّرت الآنسة البدء، فكشفت عن شارة الاسم (الدكتور عادل)، بالفعل كنت حمقاء لتشوّقي لمعرفة الاسم. ثمّ قالت:

-أهلًا أهلًا حيدر، مسرور بكونك أحببت فكرة أن نعمل معًا!

-أتيت لأسمع عرضك فقط. (قلتُ بلهجة عدائيّة.) لكنّني مسرور أن أرى أحد أصدقاء أبي رحمه الله (قالت سناء).

-رحمه الله، العرض الذي سأقدّمه لك معقّد قليلًا.

– أمامنا الوقت كلّه. (قالت إحدى الطالبات).

من المفاجئ لي أنّه حتى تلك اللحظة، كانت طالبات قد تزحزحن عن وسط الغرفة باتّجاه اليمين واليسار. ما هذا التسرّع؟ هذا ما كنت أفكّر فيه، لكنّني حاولت أن أبقي حواسّي كلّها مع الدكتور عادل.

– سأبدأ بالجزء الذي عليّ من اتّفاقنا: سأحصّل لك قبولًا في جامعة أمريكيّة، وسأدفع تكاليف دراستك، وسأؤمّنك بوظيفة منذ الآن، وستكون وظيفتك أن ترسم فقط، أمّا بيع اللوحات فسأتكفّل به أنا.

تحرّك فوج كبير من الطالبات نحو اليمين، كما تميل أمّي صينيّة العدس عند تنقيته.

– دقيقة! وما هو الجزء الذي عليّ أنا من الاتّفاق؟ (سألتُه).

-إنّه واضح، وهو أنّك ستدرس وتكون متفوّقًا، وأنّك سترسم، بالإضافة إلى إجراء بعض المقابلات الإعلاميّة التي سيرتّبها مدير مكتبي لك.

كنت حينها أودّ لو ألتفت إلى زميلاتي، وأعاتبهنّ على التسرّع، فليس في الحياة شيء مجّانيّ! الصفقة تبدو مشبوهة جدًّا. كنت أرى وجه الآنسة ديمة بصورة جديدة! أقسم إنّها كانت مختلفة اليوم، كان يعلو وجهها قناع. هذه أوّل مرّة لا أجدها جميلة. بدت بطريقة ما شخصًا لئيمًا. كان واضحًا جدًّا لي أنّها كانت تخفي شيئًا. وهذا بالفعل ما ظهر لاحقًا، لكنّني أريد أن ألتزم بتقليد التقيّد بالزمن الذي اتّبعته منذ بداية الكتابة في السجلّ.

وأنا أكتب الآن أفكّر في ورطة نقع فيها جميعًا، أو على الأقلّ أقع فيها أنا، لقد تجسّدت هذه الورطة واضحةً في الموقف الذي وضعتنا فيه الآنسة. أقصد أنّنا نتسرّع في قبول شيء أو رفضه، ثمّ نبدأ بتبرير خيارنا في أثناء تكشّف التفاصيل الأخرى. هل ثمّة

مشكلة ما في توصيل الأسلاك في رؤوسنا؟ ماذا لو انتظرنا حتّى تتبيّن التفاصيل كلّها ثم قرّرنا؟ ألن يكون هذا أسلم!

-عزيزي الدكتور عادل، أنا لا أرى الصفقة منطقيّة. ولا أحبّ أن يتصدّق عليّ أحد. (قلتُ له بلهجة حازمة).

-حيدر، أنت شابّ ذكيّ، صحيح الأمر أعمق من هذا.

سبقت صديقتي مرح، بقيّة الطالبات عائدةً إلى منتصف الصفّ، ثم تبعتها أخريات.

-وما الأمر إذًا؟ (سألت إحداهنّ).

-أنت تعرف أنّ العراق كان تحت عقوبات لزمن طويل قبل الغزو، وهذه العقوبات شملت كثيرا من النشاطات الاقتصاديّة للسياسيّين مثلي.

-لا أفهم! ما هو دوري؟

-على مهلك! القصّة أنّ معايير كون الأموال شرعيّة أو غير شرعيّة تختلف من ثقافة إلى أخرى، وأنا لديّ أموال كثيرة تحتاج إلى أن تصبح "شرعيّة" في نظر الآخرين، في الحقيقة أنا أتعاون مع فنّانين بالطريقة الآتية: يعرضون لوحاتهم للبيع في مزادات، فأشتري أنا اللوحة بمبالغ ضخمة، ما يرفع سعر لوحاتهم القادمة، وفي الوقت نفسه يرفع سعر اللوحة التي لديّ. شراء اللوحات الفنّيّة وبيعها لا يخضع للرقابة الماليّة ذاتها. باختصار: أنا أحتاج أن يمرّ مالي في طور أن يكون قطعًا فنّيّة، حتّى أوفّر على نفسي عناء المساءلة.

-أليس هذا غسيل أموال! (صرخت سناء في وجهه).

بعد كلمة سناء، تغيّر ترتيب الصفّ كليًّا، وأظنّ أنّني الوحيدة التي لم تغيّر مكانها منذ أوّل الحصّة. كنت أجلس في المنتصف إلى اليسار قليلًا. أغلب الطالبات

صرن إلى يسار القاعة، في معارضة واضحة للانخراط في نشاط "غسيل الأموال" هذا.

غطّت الآنسة شارة الاسم بكفّها، وقامت من مكانها، وهي تقول:

"لنترك الدكتور عادل مجمّدًا هنا، ولنفكّر مع حيدر... عندما أقترب من واحدة منكنّ، توضّح سبب اختيار حيدر لهذا المكان دون أن تغادر دور حيدر."

كان حيدر متناثرًا في القاعة من أقصى يمينها لأقصى يسارها؛ على اليمين حيدر سئم من الضغوطات ولا يريد تفويت الفرصة، وعلى اليسار حيدر يخاف من تبعات هذا العمل القانونيّة، وفي الوسط حيدر آخر حائر بين نسخه المبعثرة. تنوّعت أسباب الرفض والقبول، فمن الطالبات من تعاملت مع الأمر بوصفه قصّةً تبحث عن نهاية، ولا مانع لديهنّ من أن يأكل الذئب ليلى حتّى دون أن يأتي الحطّاب لينقذها، أو يلتهم الثعلب مالك الحزين، ومنهنّ من قبلت لأنّها ترى أنّ حيدر ليس مذنبًا في صفقة

كهذه، ومنهنّ من رأت أنّ القانون مساوٍ للأخلاق، فمن لم ينتهك قانونًا، فهو لم يفعل شيئًا شائنًا.

كنت أجلس في مكاني إلى يسار حيدر أتكلّم معه:

"لا تتسرّع في الإجابة يا حيدر، اطلب مهلةً لتفكّر بتروٍّ! تستطيع خلال هذا الوقت أن تتحرّى عن الرجل، هل هو إنسان جيّد تظلمه القوانين الاقتصاديّة، أم هو جشع يريد المال بأيّة طريقة؟ ماذا يقول فقراء العراق عنه؟ هل ساعد الاحتلال الأمريكيّ؟ كيف كان ينظر له والدك؟ ألا تعلم والدتك شيئًا عن عمل أبيك وزملائه؟ هل استطعت قراءة ما على الميكروفيلم؟ لعلّ اسمه هناك في القائمة التي تركها والدك!"

وتقريبًا هذا ما قلته بلغة أو أخرى على لسانه عندما اقتربت منّي الآنسة ديمة. ما إن أنهيت كلامي، حتّى سألتْ إحدى الزميلات: "هل يحقّ لنا تغيير مكاننا، بعد سماع زميلاتنا؟" فأجابت الآنسة بالإيجاب، وكأنّها أمرت الصفّ بأن يتحرّك. الغريب أنّ بعض

الكلام الذي كان يجعل فتاة تنتقل من اليسار إلى اليمين، كان هو ذاته يجعل أخرى تنتقل من اليمين إلى اليسار، ومع النقاش والكلام عن وضع حيدر، بدأ الصفّ يتجمّع في منطقة أقرب للمنتصف.

عاد الدكتور عادل يسأل:

-ها، ماذا قلت؟ أأنت متحمّس لتغيّر حياتك إلى الأبد؟

-أحتاج أن أفكّر أكثر.

-مع أنّ الأمور واضحة، لكنّني جاهز لأعدّل لك الشروط بعد أن تفكّر بها. إذا كان لديك تحفّظ ما، فعليك أن تخبرني فقط، كم تريد من الوقت؟

-أحتاج أسبوعًا! (قالتها عدد من الطالبات معًا!)

قالت الآنسة: "على فكرة يا بنات، يمكن أن يكون الموعد غدًا عند حيدر داخل القصّة، بينما نؤجّله إلى الحصّة القادمة!" ضحك الصفّ كلّه على فكرة أنّنا

تعوّدنا على أن ننتظر أسبوعا بين الحصّة والحصّة، حتّى أنّنا طلبنا أسبوعًا داخل القصّة!

نزعت الآنسة شارة الاسم عن قميصها، وبدأت توضّح لنا الفرق بين المسرحيّة التي سنمثّلها، وبين الدراما التي نكتبها أثناء الحصص. وأنّ المسرحيّة قد تبنى من مشاهد متفرّقة، وقد يتخلّلها رقصات تعبيريّة، وأنّها ما زالت تعمل على النصّ، لكنّها تريد منّا أن نتعاون معها لتصميم بعض المشاهد التي سنتفاجأ من سياقها داخل المسرحيّة.

بدأت بعد ذلك بروفات الحركة، فالطالبات سيجلسن ضمن الجمهور لعدم وجود مسرح مجهّز في المدرسة، وهذا يحتاج إلى تدريب كثير. وبدأت تدرّبنا على ما سنراقبه إن كنّا من النقّاد، وما سنفعله إن كنّا من الفنّيين، وواجباتنا إن كنّا من الجمهور. باختصار، لولا أنّنا أحببنا الدراما كثيرًا، ما احتملنا كلّ هذه التفاصيل.

بدأ الفريق الفنّي يعدّ لائحة بالملابس والإكسسوارات اللازمة، لعلّ بين الطالبات من تستطيع أن تعيرها لنا: جاكيت بدلة، خيمة، صندوق وفرشاة لمسح الأحذية... إلخ، أو أيّ شيء يمكن أن يحلّ محلّ الشيء المطلوب إن لم نجده. كان على الفريق الفنّي إحضار هذه الأشياء قبل البروفات، لأنّ الآنسة تريد منّا بروفات كاملة قبل العرض.

فاجأتنا الآنسة بأن طلبت القائمة، فشطبت بعض الأشياء قائلة: "هذه أشياء تمّ تدبّرها!" كانت أوّل مساعدة نتلقّاها من خارج الشعبة، أو ربّما من خارج المدرسة.

ختمت المعلّمة الحصّة بقولها: "سنتابع الدراما يوم الأربعاء القادم في الحصّة، لكن منذ يوم الأحد ستتأخّر الطالبات التي وافق أولياء أمرهنّ بعد الدوام للتدرّب على المسرحيّة، وأريد منكنّ جداولكنّ الأسبوعيّة، لأنّني سأستأذن من معلّمات

الحصص الأخيرة، وسيكون عليكنّ تعويض الغياب بجهد مضاعف في الدراسة البيتيّة."

قفزت الطالبات المشاركات فرحًا كحبّات الذرة في وعاء الفشار، لأنّهن سيفوّتن الحصص الأخيرة على مدار أسبوع أو أكثر!

فرحت حينها كغيري من حبّات الفشار، لكنّني الآن عند الكتابة أفكّر في كمّية الدراسة التي عليّ أن أعوّضها حتّى لا يغضب أهلي فيمنعوني من المشاركة في المسرحيّة! بالتأكيد لن أستطيع كتابة تأمّلاتي وسردي في السجلّ الأسبوعيّ كالسابق.

الأسبوع الثالث عشر

1

ليس لديّ وقت كافٍ للكتابة، لكنّه يوم الأحد، يوم أوّل بروفة، ولم أستطع تجاهل مفاجئة اليوم:

فريق المسرحيّة مكوّن من طالبات من عدّة شعب في المدرستين الصباحيّة والمسائيّة. وقد تعرّفت اليوم إلى فتاة من الفترة المسائيّة اسمها عائشة، وأظنّ أنّها هي الفتاة التي تركت رسالة لي في المقعد.

كنت أتساءل إن كانت هي أم لا، مراقبةً جديلتها الحمراء الغليظة، ولم يخرجني من تساؤلي عن علاقة الجديلة الحمراء باللقب والرسالة، إلّا كثرة اعتراض إحداهنّ على الآنسة. كانت اعتراضات وجيهة، ولـمّا فتّشت عن المتحدثة تفاجأت أنّها عائشة ذاتها.

غريب كيف يفاجئنا صوت الناس الذين نكوّن عنهم انطباعًا مبنيًّا على الشكل. الصوت هو روح الجسد، ولا أتحدّث هنا عن طبقة الصوت مثلا أو كيف يبدو للسمع، بل أتكلّم عن الأشياء التي تقولها، وكيف

تقولها. عائشة لها روح حلوة. لهجتها أيضًا لها وقع ساحر، حتّى إنّني لم أكن أنتبه إلى لهجتي أنا قبل أن أسمع اللهجات المختلفة داخل فريق المسرحيّة!

أعرف أنّني أخذت من وقت الدراسة للكتابة في سجلّ مادّة لا درجات فيها، بيد أنّني أحسّ أنّني لم أكن لأركّز في دروسي دون أن أكتب هنا.

وزّعت الآنسة اليوم الأدوار:

أنا سأكون الممثلة الرئيسة لدور أمّ حيدر، لكنّني أيضًا سأكون ممثّلة احتياطيّة لدور حيدر، الممثّلة الرئيسة لهذا الدور هي عائشة، وهي بالمناسبة رسّامة بارعة أيضًا.

هكذا أنا أعمل مع عائشة ثلث وقت التمرين، عندما نعمل على المسرحيّة المكتملة بوصفي أمّها، وعندما نعمل على دور حيدر بوصفي بديلتها، أتاح لي هذا أن أسمع على لسانها كيف يبدو صوتي المعترض لزميلاتي في الصفّ. لاحظت وجودها قبل أن تلاحظ وجودي.

وبعد أوّل حديث وجّهته عائشة لي، أقصد خارج الأدوار، سألتها بكلّ عفويّة كمن يلتقط شيئًا سقط منه: "أنت الفتاة صاحبة رسالة المقعد إذًا، أليس كذلك؟"، لم تجبني بكلمات، أمسكت جديلتها من وراء ظهرها ووضعتها على كتفها مشيرة إليها بعينها.

هكذا عرفت أنّ عائشة تجلس على المقعد ذاته الذي أجلس عليه.

للأسف، عليّ العودة إلى الدراسة اليوم أيضًا!

نفّذنا اليوم بروفة لكل مشاهد المسرحيّة، باستثناء المشهد الأخير الذي قالت عنه الآنسة: "لم تحسم الطالبات النهاية بعد!"

كانت البروفة ضعيفة برأيي، لكنّها كانت مفرحةً لنا، فقد فهمنا تفاصيل لم نكن نعلمها في القصّة. غريب كيف أنّ "واحد زائد واحد" في الفن لا تساوي اثنين! فالمشهد يمنح المشاهد قبله وبعده معنى إضافيًّا فوق معناه.

عائشة أيضًا لم تكن راضيةً عن البروفة. جميل أن تسمع مبرّرات أخرى لرأيك. تخيّلت لوهلة أنّ المقعد هو وسيلة نقل عدوى الاعتراض بيننا. كانت الفكرة مضحكة لي لدرجة أنّني شاركتها مع عائشة لأضحكها. كانت إجابتها مضحكةً أكثر: "ابحثي عن نوع من العدوى يصل إلى مدينة حمص، فأنا هكذا قبل أن آتي إلى هنا."

وكما يضيف المشهد للمشهد إذا جاوره، تضيف لي عائشة ما لم يكن فيّ ولا فيها من قبل. سألتني: "ألا تكرهين الاستيقاظ مبكّرًا؟ ما رأيك أن نقدّم لك طلب انتقال للمدرسة المسائية؟" كان ذلك تصريحًا منها بكونها تحبّ صداقتي.

كلّما بدأت الحديث عن فكرة تجاور المشاهد، انتهيت بالحديث عن عائشة!

بالرجوع إلى فكرة "واحد زائد واحد"، آخر حصّة اليوم كانت الرياضيّات! كنت أحبّ أن أستغرق أكثر في الكتابة عن المسرحيّة، لكنّ تعويض التغيّب عن الحصص صعب، ولا أملك الوقت الكافي لكتابة كلّ شيء هنا. بدأ السجلّ يتحوّل إلى مساحتي الخاصّة الوحيدة، فأنا أتشارك الغرفة مع ميّادة، والمقعد مع عائشة، والجسد مع حيدر وأمّه!

إنّه يوم الأربعاء أخيرًا، يوم حصّة الدراما، وهذا يعني أنّ حصّتنا الأخيرة هي اللغة العربيّة، المادّة التي أعدّها ملعبي. لذلك، معي الوقت أن أكتب عن التجربتين: حصّة الدراما، والمسرحيّة!

لقد فاجأتني زميلاتي اليوم، ولكنّ الآنسة ديمة ألقت علينا قنبلة! أقصد أنّها فاجأتنا جميعًا بطريقة لم تخطر على بال أحد. لقد كان حيدر يفكّر في المسارات الممكنة لحياته، قبل مقابلته الثانية مع الدكتور عادل:

قد يأتي الجواب من المفوّضيّة، وأهاجر إلى الولايات المتّحدة، ولن أحتاج أن أعمل مع الدكتور عادل، لكنّ هذا قد يطول، وأنا أريد حلًّا الآن للمشكلات المادّيّة التي أعاني منها! قد أشتري براتب المفوّضية أدوات للرسم وأبدأ برسم وجوه من يرغب من المارّة، ليس ثمّة رسّامون في وسط البلد، على الأقلّ أنا لم أصادف أحدهم.

أليس عدم وجود رسّامي شارع هناك يعني أنّها مهنة غير مجدية! لو كانت مجدية لفكّر فيها أحدهم. المارّة في وسط البلد على الأغلب ليسوا أثرياء، لكنّ بعضهم يدفع لقاء مسح حذائه!

ماذا لو قبلت العمل معه؟ هل ساعدتني القوانين الموجودة لأعيش حياة حقيقيّة! إذا كانت حياتي هذه نتيجة القوانين، فاختراق القانون ليس عيبًا، ثمّ إنّ عمل الرجل مستمرّ بي أو دوني، إنّه يحاول أن يساعدني بالطريقة التي يعرفها. ماذا في ذلك؟ أيضًا أنا لم أجد أيّ معلومة تجعلني أعتقد أنّه كان من المتآمرين ضدّ أبي.

ألا أستطيع أن أقبل في البداية، ثمّ أغيّر رأيي بعد أن أنتقل إلى أمريكا؟ حينها لن أكون قد ساعدته في جرائمه! وفوق ذلك أنا عندي مسؤوليّة وصيّة أبي لي. سأكون أنانيًّا لو فكّرت فقط في ما أراه الأفضل لي، فالأفضل لقضيّتي أن أمتلك الشهرة اللازمة، وأكون

في المكان الصحيح لكي أرى ما في داخل الميكروفيلم وأفضح السارقين!

كان حيدر عندي يفكّر في المشكلة، وهو يحمل الثور المجنّح أمام وجهه، ثمّ جعلته زميلة أخرى جالسا يقرأ وصيّة والده. وقاطعتنا الآنسة لتقول:

"الآن وقت القرار، ما فكّرت به الواحدة منكنّ ليس ملزمًا لها الآن، سأطلب منكنّ أخذ قرار، تبلغنه للدكتور عادل. الموافقات يذهبن إلى يمين القاعة، والمعارضات يذهبن إلى يسارها، وليس ثمّة وسط!"

عندما تزحزحت عن مكاني سرت لا إراديًّا إلى يسار القاعة، بينما كان الصفّ كلّه تقريبا يتّجه إلى اليمين. مرح هي الوحيدة التي جاورتني، وأظنّها فعلت ذلك كي لا أبقى وحيدة.

ثمّ جاءت قنبلة الآنسة ديمة. كانت تلعب دور الدكتور عادل، وبعد أن وافق حيدر على عرضه قال:

-عرفت أنّك شابّ ذكيّ، لا يرفس النعمة. ممتاز يا حيدر سنكون فريقًا رائعًا، لكنّني أريد منك شيئًا.

-وما هو؟

-لقد علمت من سائق والدك أنّه أوصل لك مغلّفًا في المخيّم قرب الحدود الأردنيّة.

-نعم كانت رسالة من أبي.

-الرسالة لك، لكنّني أحتاج شيئا آخر كان في المغلّف، إنّ مسؤوليّتي تجاه العراق تدعوني إلى أن أتدخّل وأحاول تنفيذ وصيّة أبيك.

-محتال! (صرختُ بأعلى صوت عندي.)

نزعت الآنسة ديمة شارة الاسم، وقامت من مكانها. وبعد أن هدّأتني قالت:

"سمعتنّ ما يقول الرجل، والدراما قد توقّفت قبل صرخة غادة، أي إنّ حيدر لم يقل للآن شيئًا. دعونا

نجمّد الموقف، ونتناقش: من منكنّ ما تزال موافقة على الصفقة؟ ومن منكنّ تقرّر أن تلغيها؟ ولماذا؟"

وبدأ نقاش عميق عقيم، بين من ترى أنّ الدكتور عادل سيساعد حيدر، وأنّ من الحماقة أن نرفض عرضه، وبين من ترى أنّه بالفعل محتال، وأنّه من المتآمرين على الدكتور كمال والد حيدر.

كانت الأغلبيّة أصلًا في صفّي، كنّ يعارضن الصفقة، لكنّني فركت مصباح القصّة جيّدًا حتّى أخرجت منها الجنّيّ:

"كيف باح السائق بأمر الرسالة والميكروفيلم؟ ألم يكن مخلصًا للدكتور كمال؟ ثمّ ما الذي أدراه بوجود الميكروفيلم من الأصل؟"

هنا مالت القاعة باتّجاه اليسار، كأنّها ميزان وضعت في كفّته اليسرى صخرة.

قالت الآنسة ديمة:

"السؤال المركزيّ هنا هو: هل من يتنازل عن كرامته الشخصيّة يمكن أن يحافظ على كرامة شعبه؟ وهل

سيبقى الإنسان هو ذاته إذا تنازل عن قضيّةٍ شكّلته؟ المسألة ليست قرار حيدر، وليست حيدر من الأساس، لكنّها الصراع بين الرغبات الشخصيّة والنزوات من جهة، والصالح العامّ من جهة أخرى. أنا فخورة بقراركنّ."

وجدت نفسي أقاطع الآنسة:

"لكن، ماذا سيحدث مع حيدر الآن؟"

فأجابت أنّ النهاية مفتوحة على احتمالات كثيرة، لكنّ المهمّ أنّه ليس من بينها التعاون مع الدكتور عادل. ومع أنّ مشكلات حيدر لم تنته على الإطلاق، إلّا أنّنا بتنا نعرف أنّه شخص لا ييأس، وأنّه لن ينحرف، وسيبقى يبحث عن حياة كريمة له ولشعبه.

عدنا بعد نقاش طال للتدرّب على مهمّات ستوكل إلى كلّ منّا أثناء المسرحيّة، وكنت اليوم متشوّقة إلى رؤية البروفة كاملة، فقد حُسمت النهاية على ما يبدو، لكنّني فكّرت فورًا بالصفوف الأخرى، والمدرسة المسائيّة: هل كانت النهاية التي اختارتها

الفتيات مماثلة للنهاية التي اخترناها؟ وعندما سألت الآنسة، قالت:

"بعض الصفوف رفضت مقابلة الدكتور عادل للمرّة الثانية، وكلّ الصفوف في المدرستين رفضت التعاون معه."

تركني كلامها متحمّسة إلى انتهاء دوام اليوم، ومقابلة صديقاتي الجدد فأنا بتّ أعرفهنّ أكثر.

وفي التدريبات، أخبرتنا الآنسة أنّ العرض سيكون في نهاية الأسبوع القادم، وأنّ الجمهور سيكون الطالبات وعموم الأهالي، وسيأتي ضيف من مديريّة التربية في منطقتنا، وأنّ هذا لا يعني أن نقلق أو نفكّر في الأمر، علينا فقط أن نفعل ما نفعله كلّ يوم ناسين كلّ ما حولنا، فنحن لا نريد أن نضيف مراقبًا جديدًا إلى القائمة!

منذ أوّل الأسبوع وأنا أريد أن أترك الدراسة قليلا، وأكتب عن الصداقات التي نشأت بين المدرستين والشُّعَب المختلفة. عجيب كيف أنّنا نتشارك المنطقة

السكنيّة نفسها تقريبا، ونتشارك المدرسة نفسها، وندرس المناهج نفسها، لكنّنا لم نصبح صديقات إلّا عندما تشاركنا العمل في سبيل حلم مشترك. هذه شراكة من نوع مختلف.

كنا نحلم أن نرى المسرحيّة تُعرض، وأن نشارك الجمهور قصّة عاشتها كلّ منّا، بأحزانها وأفراحها ودهشتها. في بروفة اليوم كانت المسرحيّة مكتملة، جميلة، ولم نستطع ألّا نتقافز فرحًا بها مع نزول الستار دون أغلاط. لدى رؤية النهاية هكذا، صرت أفكّر: ماذا لو قرّرت الصفوف التعاون مع الدكتور عادل؟ ماذا ستكون النهاية حينها. فقرّرت سؤال الآنسة.

أخرجت المعلّمة من حقيبتها الجلدية ورقة، وقالت لي: "اقرئي المشهد الختاميّ في تلك الحال."

كان المشهد مقتطفًا من زيارة حيدر إلى وسط البلد بعد أن صار ثريًّا: يمشي بملابس زاهية الألوان، ويقابل العمّ ماسح الأحذية، ويقرفص حتّى يكون

على مستوى بصره، ثمّ يمدّ يده في جيبه ويخرج مبلغًا كبيرًا من المال. إلى هذه اللحظة، كنت مستغربةً من النهاية، وضبطت نفسي وهي تسأل: لماذا لم نعفه من المعاناة التي وضعناه فيها! لكنّ القراءة أكثر جعلتني أحسّ بالعار للحظة!

يبتسم ماسح الأحذية، ويقبل المال من حيدر، ثم يقف الشاب ويضع قدمه على الصندوق، في إيماءة تطلب من المسنّ البدء في مسح حذائه.

لم أجرؤ على إخبار صديقتي عائشة بأمر النهاية البديلة، مع أنّها تذمّرت كثيرًا من فكرة أنّ المسرحيّة تنتهي دون أن ينتصر حيدر، تقول عائشة: "ليس للأخيار سوى القصص والمسرحيّات. الأدب هو المكان الوحيد الذي ينتصر فيه الخير في النهاية!"، كانت ترى أنّ القصّة تسرق منّا لحظة النصر التي ننتظرها منذ قراءة الرسالة. ورغم كلّ الرغبة التي لديّ، لا أظنّ أنّني سأخبر أحدًا بأمر النهاية. باختصار أخاف أن أبكي حينها. أنا لا أحبّ أن أتحدّث عن حيدر

الذي فيها، وأحبّ أن يظلّ حيدر كما عرفته. أعدت الورقة للآنسة ديمة قائلة: "آنسة، هلّا تخلّصت من هذه الورقة إلى الأبد؟"

قالت الآنسة: "أعرف أنّك مميّزة في الكتابة، وأحبّ أن نتناقش أكثر، وليس لديّ حصص بعد البروفة. فإذا كان لديك الوقت أحبّ أن نتحدّث عنها."

وبعد قليل، خرج الجميع من المسرح، وبقيت مع الآنسة. كانت الأضواء خلفها تجعلها امرأة من ظلّ، وبدأت تسألني أسئلة متتابعة:

- ما هو دافع الإنسان لإنتاج الفنّ؟
- الفنّانون مشاهير أثرياء، ربّما يحاول الناس أن يكونوا مثلهم.
- قد ينطبق هذا على بعض الفنّانين في بعض المجالات، لكنّ الكتابة فنّ، والمسرح فنّ، أنتنّ ستقدّمن فنًّا أمام الجمهور بعد أيّام، هل تتوقّعن الثروة والشهرة من هذا؟

-هاهاها... لا بالتأكيد، لكنّنا نستمتع ونتعلّم.

-لماذا تستمتعن بكلّ هذا العمل الشاقّ؟

كانت تسأل أسئلة لا إجابة لها، ثمّ لا تفلت السؤال حتّى تمسكَ بأسئلة. وأنا أفكّر: ما علاقة كلّ هذا بالنهاية البديلة المؤذية؟ كانت أوّل مرّة أشعر أنّني صرت أعرف الآنسة ديمة بوصفها ديمة، فقد كانت تتحدّث بلسانها أخيرًا، لا بلسان المعلّمة، ولا المخرجة، ولا الشخصيّات.

أخيرًا، عرفت أنّ هذه المسرحيّة كانت مكتوبةً منذ سنوات ضمن مشروع تخرّج الآنسة في الجامعة، وأنّها تعرف حيدر بالفعل، لكنّ اسمه مختلف وقصّته مختلفة، والشبه الوحيد بين حيدر المسرحيّة وحيدر الواقع، أو أيّا كان اسمه، هو أنّه عالق بين ماض جميل، ومستقبل آمل، دون أن يكون له حاضر حقيقيّ.

قالت لي الآنسة: "الذي يحدث هو أنّ أنظار العالم متّجهة إلى أسفل هرم الاحتياجات البشريّة: الأمن

والغذاء، لكنّ الإنسان لا يشعر حقًّا أنّه إنسان إلّا إذا عبّر عن نفسه، وحقّق ذاته."

كانت المسرحيّة القديمة تناقش كيف نصنع الوحوش بسلوكيّات صغيرة لا نلقي لها بالًا، ما يجمعها أنّها لا تراعي الآخرين وأحوالهم. قلتُ للآنسة:

-آنسة، غيّرت رأيي في النهاية، فهي تقول شيئًا مهمًّا! ومن المهمّ أن نعرفه نحن الطالبات.

ربّتت المعلّمة على مقدّمة رأسي قائلة:

-لهذا السبب اخترتها، لكنّ الأمور تطوّرت بطريقة أفقدت هذه النهاية ضرورتها. أنتنّ الآن أكثر صداقة ولطفًا، وأنا فخورة بكنّ.

أغرب ما حدث هو أنّني عدت إلى المنزل مسرعةً، لأكتب كلّ هذا في السجلّ، السجلّ ذاته الذي كنت أكرهه جدًّا!

الأسبوع الرابع عشر

لا أصدّق أنّني كتبت كلّ هذا! عدت اليوم لقراءة السجلّ من أوّله، وأفكّر في أن أعطيه للآنسة بدلا من الرسالة التي طلبت منّا كتابتها. هي تريد تأمّلات عن أثر الدراما فينا، وهنا ستجد كلّ ما تطلبه.

ربّما ينقص السجلّ أن أرقص على الورق فرحًا بالإنجاز الذي حقّقناه، لقد كانت مسرحيّة رائعة! اهترأت أيدينا ونحن نصفّق مع الجمهور في نهايتها. كنت أصفّق لزميلاتي اللواتي بذلن أفضل ما عندهنّ، وأصفّق لأهلي الذين سمحوا لي أن أكون جزءًا من الفريق، وأصفّق لزميلاتي بين الجمهور، وأصفّق لحيدر، وأصفّق بصورةٍ خاصّة للآنسة ديمة، كنت أيضًا أصفّق لنفسي! وماذا في ذلك؟ ألا أستحقّ التصفيق!

آنسة ديمة،

تسألينا عن رأينا في التجربة، وربّما ما نحن ممتنّات لأنّه حدث. أنا ممتنّة لاحتمالك لي خلال الحصص،

فقد كنت أبحث عن السعادة في الضحك السريع، هو ضحك يشبه طعام المعلّبات الفقير بأسباب الحياة.

ممتنّة أنّني مُنحت فرصة أن أكون شخصًا آخر داخل القصّة، وأنّني ربّما الآن شخص آخر، غادة أخرى!

ممتنّة على وقت النقاش، وعلى مجادلتي ومساءلة أفكاري.

آنسة ديمة، أشكرك على حصّة الدراما الممتعة المفيدة، وعلى إصرارك أن أكتب في هذا السجلّ.

أشكرك على الصديقات الجدد، أشكرك لأنّك عرّفتني بعائشة، وبقصّة عائشة، وأشكرك على صديقة جديدة أخرى هي ليست إلّا أنت.

اسمحي لي أن أوقّع الرسالة هذه المرّة بطريقة مختلفة.

صديقتك،

غادة